الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة محمد بوضياف – المسيلة –

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

رقم:.....

الأعمال الأدبية للأسرى في الجزائر خلال العهد العثماني

– دي سيرفانتس نموذجا–

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في التاريخ تخصص: تاريخ الجزائر الحديث 1519–1830م

إعداد:

–لشهب سيف الدين

– مخلوش هاني

إشراف:

– أ / د: بيرم كمال

لجنة المناقشة:

اسم و لقب الأستاذ	المؤسسة الجامعية	الصفة
د/ عبد القادر خليفي	جامعة محمد بوضياف – المسيلة–	رئيسا
أ–د/كمال بيرم	جامعة محمد بوضياف – المسيلة–	مشرفا و مقررا
د/ يونس بن محمد	جامعة محمد بوضياف – المسيلة–	عضوا

السنة الجامعية: 1441–1442هـ/2020–2021م

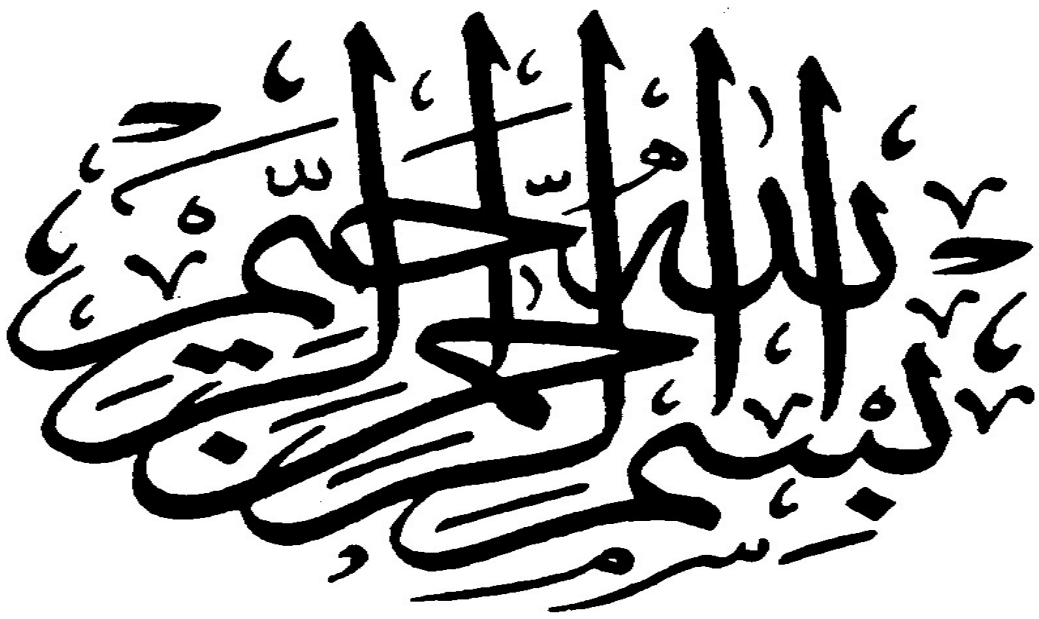

«« قُلِ اللَّهُمَ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَ تَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْئ قَدِير ﴿26﴾ »»

سورة آل عمران [الآية26]

صدق الله العظيم

إهـــداء:

الحمد لله الذي فتح لنا فتحا مبينا و جعل طريقنا في طلب العلم واضحا بيّنا

و الصلاة و السلام على أشرف خلق الله محمد بن عبد الله أما بعد:

أهدي هذا العمل المتواضع إلى والدي الكريمين فخرا و اعتزازا و إلى كافة إخوتي كبيرهم و صغيرهم، إلى كل من يحمل لقب "لشهب" و "قرايت" إلى كافة الأهل و الأقارب و الأصدقاء و الزملاء كل باسمه، إلى من شارك معي هذا العمل صديقي و زميلي" هاني مخلوش"، إلى أستاذي و مشرفي" بيرم كمال" و إلى كافة أساتذتي في مختلف المراحل التعليمية و أخص بالذكر أساتذة المدرسة العليا للأساتذة –مسعود زغار- بالعلمة و كذا أساتذة جامعة محمد بوضياف بالمسيلة إلى زملائي أساتذة ثانوية محمد بن خلاب – تاشودة- إلى كافة تلاميذي الأعزاء.

"إلى كل من وسعتهم ذاكرتي و لم تسعهم مذكرتي"

لشهب سيف الدين

إهـــداء

الحمد لله الذي فتح لنا فتحا مبينا و جعل طريقنا في طلب العلم واضحا بيّنا

و الصلاة و السلام على الرحمة المهداة والنعمة المسداة سيدنا وحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم أما بعد:

إلى سنديّ في الحياة والديّ حفظهما الله و اللّذين سهرا على حسن تربيتي و تعليمي و توفير كل احتياجاتي حتى وصلت إلى هذه المرتبة، إلى زميلي و صديقي **لشهب سيف الدين**، إلى كل عائلة "**مخلوش**" و "**العيداني**"، إلى أستاذي ومشرفي "**بيرم كمال**" إلى أساتذتي من مرحلة التعليم الابتدائي إلى غاية التعليم العالي، و أخص بالذكر أساتذتي في المدرسة العليا الأساتذة بالعلمة-مسعود زغار- و كذا أساتذة جامعة محمد بوضياف بالمسيلة إلى كل أصدقائي ومعارفي، إلى كل من شجعني ولو بالكلمة الطيبة، إلى كل من أشعل شمعة ينير بها طريق العلم إلى كل من خط أو أورث علما ينتفع به أهدي هذا العمل المتواضع

مخلوش هاني

شـــكر و عـــــرفـــــان

بسم الله الرحمن الرحيم

" رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ"

سورة النمل الآية 19

الحمد لله الذي أنار لنا درب العلم و المعرفة و وفقنا في إنجاز هذا العمل وله الحمد والشكر أولا و آخرا و الصلاة والسلام على الرحمة المهداة سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم

نتقدم بخالص الشكر والعرفان إلى الأستاذ المشرف **بيرو كمال** الذي دعمنا ووجهنا وكان لنا خير محفز و سند في إتمام هذا العمل وجزاه الله عنا خير الجزاء.

كما نتقدم بخالص شكرنا لكل أساتذة، عمال وموظفي جامعة محمد بوضياف – المسيلة-

و لكل من ساهم من قريب أو من بعيد في إتمام هذا العمل المتواضع.

قائمة المختصرات:

1- باللغة العربية

تحقيق	تح
ترجمة	تر
جزء	ج
دون تاريخ	د ت
صفحة	ص
طبعة	ط
عدد	ع
ميلادي	م
مجلد	مج
مراجعة	مر
هجري	هـ

2- باللغة الأجنبية :

edition	éd
ibidem	ibid
numéro	n°
opera citato	op. cit
page	p
sans date	sd
tome	t
traduction	tr
volume	v

مقدمة

مقدمــة:

إن الدارس لتاريخ الجزائر بصفة عامة سواء القديم أو الوسيط و حتى المعاصر يلاحظ أنه غني بأفراد و شخصيات أُلفت حولها الكثير من الكتب و المجلدات، و تاريخ الجزائر خلال الفترة العثمانية لا يختلف كثيرا عن الفترات التي سبقته فقد عرفت الجزائر خلال هذه الفترة ظهور العديد من الشخصيات التاريخية التي كان لها وزن عالمي سواء تعلق الأمر بالجزائريين أنفسهم أو بالوافدين على المجتمع الجزائري خلال هذه الفترة، فهذا الأخير قد عرف تنوعا كبيرا في تركيبته خلال هذا العهد ، حيث نجد بالإضافة إلى الأهالي و الأتراك و المورسكيين فئة أخرى كان لها تأثير كبير في هذا المجتمع كما تأثرت به و هي فئة الأسرى، و يظهر تأثر هذه الفئة بهذا المجتمع من خلال مؤلفاتهم سواء كانت مذكرات أو أعمال أدبية. و لعل من أبرز هؤلاء نجد أمير الأدب الإسباني "ميغيل دي سيرفانتس" الذي عاش في الجزائر خلال فترة أسره و قدم عديد الأعمال التي أحدثت ثورة في الأدب العالمي بصفة عامة و الأدب الأوروبي بصفة خاصة و هو ما سنتطرق إليه في هذه الدراسة التي ستتناول الأعمال الأدبية للأسرى في الجزائر خلال العهد العثماني " دي سيرفانتس نموذجا"

أهمية الموضوع:

تعد الأعمال الأدبية للأسرى و كذا شخصية دي سيرفانتس موضوعا هاما و خصبا في التاريخ بصفة عامة و ذلك لشهرة هذا الأخير و وزنه العالمي، حيث قدم العديد من الأعمال الأدبية العالمية و التي أقل ما يقال عنها أنها أحدثت نقلة نوعية في الأدب الأوروبي و العالمي، و في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني بصفة خاصة و ذلك لأن هذه الأعمال التي قدمها الأسرى تعتبر مصدرا لا غنى عنه لدراسة تاريخ الجزائر خلال هذه الفترة فهي تزودنا بالعديد من المعلومات المهمة عن المجتمع الجزائري و طريقة عيش الأسرى فيه، كما أنه من خلال هذا الموضوع سنتعرف على شخصية مهمة في الأدب الاسباني و التي عاشت في الجزائر و هي شخصية دي سيرفانتس كما سنتعرف على أهم الأعمال التي قدمها هذا الأخير و التي جسد فيها العديد من الشخصيات التي عاصرت فترة أسره في الجزائر و لهذا جاء موضوعنا في هذا الباب.

دوافع اختيار الموضوع:

دفعنا لاختيار هذا الموضوع و البحث فيه عدة عوامل من بينها:

العوامل ذاتية: كالميل و الرغبة لدراسة المواضيع المتعلقة بتاريخ الجزائر الحديث، و كذلك الرغبة الشخصية في إثراء رصيدنا المعرفي حول هذه الفترة خاصة المواضيع المتعلقة بالأسرى إضافة إلى إشباع فضولنا حول شخصية ميغيل دي سيرفانتس و أهم الأعمال التي قدمها هذا الأخير.

العوامل الموضوعية: و تتمثل في كشف الغطاء عن موضوع الأسر و الأسرى في الجزائر خلال العهد العثماني و أهم مؤلفاتهم و كذا التعرف على شخصية مغيل دي سيرفانتس و أهم ما قدمه من أعمال أدبية و تأثير حياته في الأسر على هذه الأعمال.

الإطار الزّماني و المكاني للدراسة:

تغطي هذه الدراسة الفترة الممتدة من 1547م إلى 1616م، حيث يمثل التاريخ الأول تاريخ ميلاد ميغيل دي سيرفانتس أما التاريخ الثاني فيمثل تاريخ وفاة هذا الأخير مرورا بسنة 1575م و هو تاريخ وقوع سيرفانتس بالأسر وبداية حياته في مدينة الجزائر، إضافة إلى 1580 م تاريخ تحريره و كذا سنة 1603م و هو التاريخ الذي ألف فيه هذا الأديب روايته المشهورة " دون كيشوت" أما بالنسبة للإطار المكاني فيتمثل في إسبانيا و إيطاليا و البرتغال إضافة إلى مدينة الجزائر

الإشكالية:

تتمحور إشكالية الدراسة حول شخصية الأسير دي سيرفانتس و أهم ما قدمه من مؤلفات و أعمال أدبية وخاصة تلك التي لها علاقة مباشرة بفترة أسره بالجزائر و كذا عمليات الأسر و الأسرى في الجزائر خلال العهد العثماني ؟

و تتفرع هذه الإشكالية العامة إلى عدة تساؤلات فرعية هي كالآتي :

-كيف كان يقوم الجزائريون بعمليات الأسر في البحر الأبيض المتوسط؟

- كيف كانت حياة الأسرى في الجزائر و ما هي طرق افتدائهم ؟

- من هو مغيل دي سيرفانتس و كيف كانت حياته قبل الأسر و بعده؟

- ما هي أهم أعمال دي سيرفانتس الأدبية، و هل كان لفترة أسره تأثير في هذه الأخيرة، وماذا نقل عن الجزائر في العهد العثماني ؟

المناهج المعتمدة:

اعتمدنا في هذه الدراسة على **المنهج التاريخي** و هذا بالنظر إلى طبيعة الموضوع التاريخية، لذلك لابد من اعتماد هذا المنهج لسرد الأحداث و الوقائع، حيث أفادنا هذا الأخير في تتبع الأحداث و تسلسلها في سياق مرتبط بالزمان و المكان، كذلك **المنهج الوصفي** و الذي استخدمناه في وصف الأحداث التاريخية و كذلك أهم الشخصيات و الأعمال التي تناولها موضوعنا، إضافة إلى **المنهج التحليلي** و الذي يعتمد على تحليل آراء و أقوال المؤرخين و الأدباء حول شخصية سيرفنتاس و أعماله، أما **المنهج المقارن** فقد استعملناه في المقارنة بين الروايات التاريخية المتعددة.

خطة العمل:

للإجابة عن الإشكالية المطروحة وضعنا خطة من ثلاث فصول و كذا فصل تمهيدي حيث يندرج تحت كل فصل ثلاث مباحث بالإضافة إلى مقدمة و خاتمة و كذلك قائمة الملاحق و قائمة المصادر و المراجع. فوضعنا الفصل التمهيدي تحت عنوان نماذج من أعمال و مؤلفات الأجانب في الجزائر خلال العهد العثماني حيث تندرج تحته المباحث التالية: المبحث الأول مؤلفات القناصل و الدبلوماسيين، المبحث الثاني أعمال الرحالة و رجال الدين، المبحث الثالث كتب الأسرى. كما عنونا الفصل الأول بالأسر و الأسرى في الجزائر خلال الفترة العثمانية حيث وضعنا المبحث الأول في هذا الفصل تحت عنوان الجزائر و عمليات الأسر في البحر الأبيض المتوسط و تطرقنا في المبحث الثاني إلى حياة الأسرى و معاملتهم في الجزائر أما المبحث الثالث فخصصناه لافتداء الأسرى، أما فيما يخص الفصل الثاني فعنون بسرفانتس أسير الجزائر، حيث تطرقنا في المبحث الأول إلى حياة سرفانتس قبل الوقوع في الأسر و خصصنا المبحث الثاني لمشاركته في معركة ليبانتو و وقوعه في الأسر أما المبحث الثالث فتطرقنا فيه إلى محاولات الفرار و افتداء سرفنتاس . بالنسبة للفصل الثالث وضعناه تحت عنوان أهم الأعمال الأدبية لسرفانتس حيث عنوننا المبحث الأول برواية دون كيشوت أما المبحث الثاني فتطرقنا فيه إلى رواية الأسير، غالاتيا، بيرسليس وسيجيموند ، أما المبحث الثالث فخصصناه لنماذج من مسرحياته.

المصادر و المراجع:

لإنجاز هذه الدراسة اعتمدنا على مجموعة من المصادر و المراجع أهمها:

مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب لمؤلفه جيمس ليندر كاثكارت و كذا مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر لوليام شالر حيث استفدنا من هذه المصادر في دراسة عمليات الأسر و معرفة أوضاع الأسرى في الجزائر خلال العهد العثماني و كذلك رواية دون كيشوت لمؤلفها ميغيل دي سرفانتيس و قد استفدنا منها في دراسة أهم أعمال سرفانتس الأدبية هذا إضافة إلى مجموعة من المراجع أهمها سيرفانطيس أمير الأدب الإسباني لنجيب أبو ملهم و موسى عبود و الذي استفدنا منه في معرفة حياة سرفانتس بمختلف مراحلها كما استعملنا أيضا مجموعة من المذكرات و الأطروحات أهمها أطروحة الدكتوراه لقرباش بلقاسم "الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات 1671-1830م " و كذا مذكرة ماجستير للطالبة محمة عائشة و المعنونة بـ الأسرى الأوروبيون في مدينة الجزائر ودورهم في العلاقات بين الجزائر ودول الحوض الغربي للمتوسط خلال القرنين السادس والسابع عشر ميلادي و قد استفدنا منهما في معرفة واقع الأسرى و الكيفيات التي كان يتم بها افتداؤهم بها.

الصعوبات:

واجهتنا خلال إنجاز هذه الدراسة عدة صعوبات و عراقيل تمثلت فيما يلي: صعوبة الوصول إلى بعض المصادر وكذا بعض الدراسات الأجنبية، إضافة إلى أن معظم المصادر المتعلقة بالموضوع كانت باللغة الاسبانية و الفرنسية كما نجد أيضا جائحة كورونا و ما نتج عنها من تقلص فترة الدراسة و غلق المكتبات و هو الأمر الذي صعب علينا الحصول على بعض المصادر و المراجع.

و في الأخير نحمد الله تعالى على توفيقه لنا في القيام بهذه الدراسة المتواضعة كما نتوجه بالشكر و العرفان إلى كل من قدم لنا يد المساعدة سواء من قريب أو من بعيد.

الفصل التمهيدي

نماذج من أعمال و مؤلفات الأجانب في الجزائر خلال العهد العثماني

المبحث الأول: مؤلفات القناصل و الدبلوماسيين.

المبحث الثاني: أعمال الرحالة و رجال الدين

المبحث الثالث: كتب الأسرى.

الفصل التمهيدي: نماذج من أعمال و مؤلفات الأجانب في الجزائر خلال العهد العثماني

يعتبر تاريخ العهد العثماني من أهم الفترات التي مر بها التاريخ الجزائري بصفة عامة، فهذه الفترة يتم دراستها من خلال مجموعة من المصادر المحلية و كذا المصادر الأجنبية التي ألفت من قبل شخصيات عاشت بين أحضان المجتمع الجزائري و أخذت عنه انطباعات عديدة، حيث قام هؤلاء بتدوينها في مؤلفاتهم و كتبهم التي تعتبر مصدرا لا غنى عنه لدراسة هذه المرحلة و ذلك من خلال ما قدموه من شهادات و أوصاف و إحصائيات و تقارير دقيقة و مفصلة، و نجد منهم قناصل و دبلوماسيين و رحالة و رجال الدين و كذا أسرى و هو ما سنتطرق إليه خلال هذا الفصل التمهيدي.

المبحث الأول: مؤلفات القناصل والدبلوماسيين:

أ- تاريخ مملكة الجزائر لـ "لوجي دو تاسي Laugier de Tassy":

جاك فيليب لوجي دو تاسي عاش بين نهاية القرن 17م وبداية القرن 18م[1]، قنصل فرنسا في الجزائر عين في 27 جويلية 1717م، وسجل في الجزائر في 16 جانفي 1718م، ترك منصبه في 2 جويلية 1718م، بعد فترة إقامة بالجزائر تقدر بخمسة أشهر ونصف، حسب سجل القنصلية بالجزائر فقد كان ذلك بطلب منه وانطلق لبلده فرنسا في سفينة القائد "موليني دو كاسيس Moulinier de Cassis"، بعد سبع سنوات شغل منصب مفوض البحرية الملكي الفرنسي بأمستردام-هولندا- وقد نشر كتابه "تاريخ مملكة الجزائر" هناك.

كان لوجي دوتاسي المسؤول الدبلوماسي الثاني عن الأسرى الفرنسيين واليهود الليفورنيين-إيطاليين- في الجزائر في فترة توليه شؤون القنصلية، و كان على اتصال مباشر بالأوضاع في مدينة الجزائر، وقد قدر الجزائر بشكل كبير إذ كان يقول: «الأحكام المسبقة لغالبية المسيحيين ضد الأتراك والمسلمين مروعة، بحيث ليس لديهم تعابير تكفي لإظهار ازدرائهم ورعبهم منهم »[2].

وجه كتاب "تاريخ مملكة الجزائر" للأوروبيين، وكان ذا صبغة إدارية سياسية عسكرية، تطرق لحالة حكومة الجزائر آنذاك وقواتها البحرية والبرية وعائداتها ونظامها الأمني، القضاء، السياسة والتجارة، حيث تمكن لوجي دوتاسي من

[1] Jean Gray: Bibliographie de ouvrages relatifs a l'Afrique et a l'Arabie, éd Vincent Bona, Turin, Italie, 1875, p43.

[2] Laugier de Tassy: Histoire du royaume d'Alger, préface Noel Laveau et André Nouschi, éd Loysel, Paris, France, 1992, p2-3.

الترحال قليلا خارج ضواحي مدينة الجزائر أثناء فترة توليه القنصلية، و نقل كما كبيرا من المعلومات حول التنظيم السلطوي والجيش الجزائري والقرصنة–الجهاد البحري[1]–، الأسر وافتداء الأسرى ومعلومات عن السكان المحليين، إذ عني بالعلاقات السياسية والتجارية وكذا كان مستشارا في محاكمات المسيحيين في الجزائر.

أوضح في كتابه أن الأسرى المسيحيين في الجزائر غالبا ما يتم الاحتفاظ بهم من أجل أموال الفدية، كما شبه الأسر في الجزائر بعمليات فرسان مالطا[2]، وأشار أن الصراع على الحكم في الجزائر نفسه في أوروبا، كما صرح أن القوانين المحلية في الجزائر عموما تراعي حقوق الناس[3]، يعتبر طرحه عقلانيا بعيدا عن العاطفة متميزا بالحداثة، إذ نقل شهادة واضحة شفافة، وهذا ما ضمن نجاح كتابه حيث ظهرت طبعة أخرى منه سنة 1732م بعنوان معاملة الأسرى المسيحيين في مملكة الجزائر... وطبعة ثالثة بمدينة لاهاي–هولندا– بعنوان الحالة العامة والخاصة لمملكة مدينة الجزائر، وظهرت طبعته الرابعة سنة 1754م بعنوان تاريخ الدول البربرية...[4]، كما ترجم مرتين للغة الألمانية و مرة للغة الإسبانية ومرة للإنجليزية ومرة للإيطالية[5].

ب– تونس والجزائر في القرن الثامن عشر لـ: فونتير دوبارادي Venture de Paradis:

جون ميشال فونتير دوبارادي، ولد في مارسيليا سنة 1739م وهو ابن القنصل جون ميشال دوفونتير، درس في مدرسة اللغات للشباب، في عمر 15 سنة سافر إلى القسطنطينية، وفي عمر 22 سنة شغل وظيفة مترجم، سنة 1770م أرسل إلى مصر ليعمل تحت إمرة المترجم الفرنسي الرئيسي "م ديجيون M Digeon"، وقد تزوج ابنة هذا الأخير في

[1] يعتبر موقف المؤرخين الغربيين من الحركة الجهادية والتي أطلقوا عليها –القرصنة– موقفا بعيدا عن الموضوعية التاريخية، إذ أن القرصنة اعتداء فردي في أيام السلم على السفن المحملة بالبضائع بهدف السرقة والنهب، في حين أن الجهاد البحري كان دفاعا عن النفس إذ كانت الدولة العثمانية في حالة حرب معلنة مع الأوروبيين، فكان عمل البحرية الجزائرية مقاومة ضد العدوان، وجهادا ضد إرادة التنصير، و رد فعل عن حركة الغنم والسلب والنهب الأوروبية، انظر: كريمة سليمان الجداية: القرصنة وحركة الجهاد البحري –لخير الدين بربروسا وإخوانه– في شمال إفريقيا 1510–1546م، مجلة كلية الآداب الإنسانية والعلوم الاجتماعية مج77، ع2، أفريل 2017، كلية الآداب، جامعة القاهرة، مصر، ص25.

[2] فرسان مالطا: منظمة تأسست سنة 1099م، مؤسسها يدعى جيرار، أطلقوا على أنفسهم في البداية اسم إخوة القديس يوحنا أو الأسبتاريين، يقال أنهم بدأوا نشاطهم بتأسيس مستشفى عام، لكن حسب المؤرخ فيليب أن الأسبتارية أو فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس كانوا هيئة غرضها تأسيس الفنادق لراحة الحجاج إلى بيت المقدس وتأسيس المستشفيات إذ دعوا فيما بعد Hospitaliers، لكنهم انقلبوا إلى جنود حرب، اتسع نفوذ هذه المنظمة وازدادت مكانتها وحشدت المقاتلين والسلاح في الحروب الصليبية، وبعد سقوط جزيرة رودس بيد العثمانيين سنة 1522م، منحهم شارل الخامس جزيرة مالطا سنة 1530م، حيث جاء منها اسمهم–فرسان مالطا–، يسمون رئيسهم أميرا، وبعد سقوط الجزيرة بيد نابوليون بونابرت سنة 1798م لم تعد لهم منطقة نفوذ، مركزهم الرئيسي حاليا بروما، ولهم فروع في أوروبا وأمريكا وآسيا، تتمحور جهودهم في الشقين الاجتماعي والصحي، ولهم فروع في الدول العربية كلبنان، انظر: أحمد راتب عرموش وآخرون: موسوعة الأديان (الميسرة)، ط1، دار النفائس، بيروت، لبنان، 2001م، ص393–394.

[3] Jacque Frémeaux: Laugier de tassy-Histoire du royenne d'Alger-, revue Française d'histoire d'outre mer, t81, n°302, 1er trimestre 1994, Société Française d'histoire des outres-mers, Paris, France, p111-112.

[4] Laugier de Tassy: op.cit, p10.

[5] Jean Gray: op.cit, p71.

القاهرة سنة 1772م، لعب دورا في المشاورات التجارية بين فرنسا ومصر وقد كان له دراية كبيرة بها، سافر إلى المغرب سنة 1778م ثم سنة 1780م شغل منصب المستشار المترجم في القنصلية الفرنسية بتونس، لعب دورا هاما في خدمة التجارة الفرنسية بتونس، اختير أمين المترجمين الملكيين في اللغات الشرقية لدى وزارة الشؤون الخارجية بباريس في 18 ماي 1781م، وشغل العديد من المناصب الدبلوماسية إذ اهتم بالمفاوضات الفرنسية في عديد المناطق[1]، أقام بالجزائر من 28 سبتمبر 1788م إلى 4 أفريل 1790م، لمدة 18 شهرا، خلال سنوات تواجد فونتير دو بارادي في شمال إفريقيا جمع عن إيالتي[2] الجزائر وتونس معلومات مهمة، لكن لم تكن كلها في نصوص رسمية إذ كانت على شكل ملاحظات ومخطوطات.

يعتبر الكتاب مصدرا هاما في تاريخ الجزائر وتونس نظرا لكون "فونتير" مراقبا جيدا، وتجدر الإشارة أنه في الجزء الثاني الذي تطرق فيه لإيالة تونس ضمن كذلك مجموعة إشارات عن الجزائر، والملاحظ أن نظرته للإيالتين كانت مختلفة إذ أظهر إعجابه بتونس ونظامها عموما مميزا إياها بالحضارة والتمدن التي يمكن أن تذهل الأوروبيين، في حين كانت نظرته للجزائر مختلفة حيث أورد أن الأتراك في الجزائر مكروهون من الكل باستثناء القناصل الأوروبيين، وقال بأن الأراضي الجزائرية خصبة إلا أن غالبية الإيالة مقفرة، وأورد أن الداي والخزناجي من قلائل الشرفاء في الجزائر، وقد كانا يقولان له: «نحن في بلد اللصوص»، كما قال بأن كل الإيالة تحمل اسم مدينة الجزائر[3].

جمعت مخطوطات فونتير دوبارادي من طرف "جوزيف كيوك Joseph Cuoc"، وقد عرض فيها نصوصا تخص الجزائر وتونس تعود لثمانينيات القرن 18م، مرفقا إياها بمقدمة و ملاحظات مفيدة، يعتبر الكتاب مهما جدا بالنسبة لكل المهتمين بتاريخ شمال إفريقيا في القرن 18م، تجدر الإشارة أن "إ فاغنان E Fagnan" سنة 1898م قد استخدم مخطوطات دو بارادي الخاصة بالجزائر والمتواجدة بالمكتبة الوطنية الفرنسية و ألف بها كتاب الجزائر في القرن 18 Alger au 18eme siècle"[4]، وهو عمل من خمس أجزاء، إذ ضم الجزء الأول ملاحظات متعلقة بالجزائر جمعها دو بارادي وكانت

[1] Venture de Paradis: grammaire et dictionnaire abrégés de la langue berbère, revus par P Amédée Daubert, imprimerie royale, Paris, France, 1844, p9-10.

[2] إيالة: أكبر التقسيمات الإدارية في الدولة العثمانية، أشرف على الإيالات أمير الأمراء ثم الوزراء بعد القرن 16م، حيث كانوا يمثلون السلطان ويجمعون بين الحكم الإداري والعسكري للإيالة، ولهم النفوذ المطلق عليها ماعدا في الحالات القضائية، انظر: سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2000م، ص45.

[3] Yacono Xavier: Venture de paradis-Tunis et Alger au XVIIIe siècle-, revue Française d'histoire d'outre-mer, t73, n°272 ,3e trimestre 1986, Société Française d'histoire des outres-mers, Paris, France, p365.

[4] Ann Thomson: Venture de paradis-Tunis et Alger au XVIIIe siècle-, Le protestantisme français, revue dix-huitième siècle, n°17, 1985, la Société française d'étude du XVIIIe siècle, France, p426.

بعنوان "ملاحظات عن مدينة الجزائر Notes sur Alger" والمرجح أنه سجلها في هذه المدينة بدليل نوعية الورق المدونة عليه، وقد كانت حالتها سيئة صعبة القراءة ولم تكن مرتبة، كما فقدت بعض الوثائق منها[1].

ج- مذكرات "وليام شالر William Shaler ":

وليام شالر قنصل وكاتب أمريكي، ابن "تيموثي Timothy" و"سيبال وارنرSibbel Warner" ولد حوالي سنة 1773م بمنطقة "بريدجبورت Bridgeport" ولاية "كونتكيت Connecticut"[2]، بين سنة 1803م و 1808م كان قبطانا بحريا، في جانفي 1812م نقل من قنصليته بمدينة "هافانا Havana " إلى "لويزيانا Louisiana"، بعد مغادرته لمنصبه في لويزيانا حضر مؤتمر السلم في أوروبا سنة 1814م، و مدينة الجزائر سنة 1815م، بين سنتي 1818م و1830م كان القنصل العام في مدينة الجزائر، بعدها عاد إلى هافانا أين مات جراء وباء الكوليرا يوم 29 مارس 1833م[3].

نشر كتاب مذكرات وليام شالر سنة 1826م في مدينة بوسطن الأمريكية، كما ترجم للفرنسية سنة 1830م ويكتسي أهمية سياسية عسكرية في احتلال الجزائر، حيث استخدم في الحملة الفرنسية على الجزائر، يضم حقائق وشهادات صادقة، كما حمل آراء ومواقف عدائية على الجزائر، ويعتبر وثيقة هامة في تاريخ الجزائر الحديث[4]، اعتمد فيه شالر على كتاب الدكتور شاو، عرض فيه الحالة الأدبية والاجتماعية والطبيعية والسياسية في الجزائر، عرج فيه على مختلف الأوضاع العسكرية في الإيالة من حملات أوروبية أثناء فترة تواجده بالجزائر، ومعاهدات سلام، كما قد تحدث عن نفسه بوصفه ممثلا عن الولايات المتحدة الأمريكية، إضافة إلى تضمينه معلومات عامة حول الجزائر[5].

---

[1] Venture de Paradis: Alger au XVIIe siècle, éditer E Fagnan, typographie Adolphe Jourdan, Alger, Algérie, 1898, p1-2.

[2] تقع ولاية كونيتكت في أقصى جنوب ولايات إقليم نيو إنجلاند New England الواقع في الشمال الشرقي للولايات المتحدة الأمريكية، ويعود اسم الولاية إلى لغة قبائل الهنود الحمر وهي تعني المكان الواقع على ضفاف النهر الطويل واسم الشهرة لولاية كونيتكت هو الولاية الدستورية،...عاصمة الولاية هي مدينة هارت فورد Hartford ، وتعد مدينة بريدج بورت Bridge Port من أكبر المدن فيها، انظر:
http://histoiralgerie.blogspot.com/2010/12/2.html

[3] https://www.tshaonline.org/handbook/entries/shaler-william#t-bibliograph14:00 على الساعة 2021/03/19 تاريخ الاطلاع

[4] وليام شالر: مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824، تر وتعل وتق إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1982، ص18.

[5] وليام شالر: المصدر نفسه، ص23-25.

اقترح شالر في كتابه على الدول الأوروبية احتلال الجزائر، كاشفا لهم عيوب نظامها وضعف قوتها وقابليتها للاستعمار، وهذا ما عملت به فرنسا حيث سارعت إلى ترجمة كتابه-كما أشرنا سابقا- وتطبيق اقتراحه قبل أن يسبقهم إليه منافسوهم الإنجليز[1].

المبحث الثاني: أعمال الرحالة و رجال الدين:

أ- تاريخ باربارية وقراصنتها "لبيار دان Pierre Dan":

ولد الأب بيار دان سنة 1580م وتوفي سنة 1649م، قضى ما يقارب نصف قرن في تنظيم الثالوث المقدس[2] لافتداء الأسرى كما ترأسه لمدة 14 سنة، سافر للجزائر سنة 1634م وقضى بها فترة من الزمن[3] طوال فترة قيادته لتنظيم الثالوث لم يهمل الإشارات والمعلومات التي يرسلها قساوسة تنظيمه المكلفين بافتداء الأسرى، ما ساعده في تأليف كتاب تاريخ باربارية وقراصنتها الذي نشر سنة 1637م، و أعيد طبعه سنة 1649م بتعديل في العنوان وإضافة بعض الفصول[4].

أنجز الأب بيار دان مؤلفه تاريخ باربارية وقراصنتها لممالك ومدن الجزائر وتونس وسلا وطرابلس في طبعتين —كما سبق وأن أشرنا-، مستغلا رحلته لشمال إفريقيا و اطلاعه على تفاصيل وتقارير رحلات زملائه، وقد كانت الطبعة الثانية سنة 1649م أكثر شمولية وتدقيقا وهي بحوالي 550 صفحة، حيث فضلا عن الإهداء والمقدمة وترخيصات الملك ورجال الدين والفهارس ضم متن الكتاب 6 أجزاء موزعة على 74 فصلا مع تجزئة الفصل الثاني-متعلق بالمدن القرصانية الرئيسية-إلى خمس إخباريات[5].

يعتبر الكتاب مصدرا هاما من مصادر القرن 17م لأقطار المغرب العربي، باعتباره متخصصا بالمجال البحري عموما والجهاد البحري بصفة خاصة، حيث يعتبر الأب دان من أوائل الباحثين في موضوع القرصنة ولصوصية البحر، وكذا تاريخ الملاحة الإسلامية خلال العصور الحديثة، إذ يقدم معلومات قيمة عن الحقبة الزاهية التي عرفتها الأساطيل المغاربية

[1] أبو القاسم سعد الله: نظرة الأمريكيين للتاريخ الجزائري، مجلة الدراسات التاريخية، مج3، ع2، 1 أوت 1988، جامعة الجزائر2، الجزائر، ص141.

[2] انظر: الفصل الأول ص 27.

[3] عاد الأب دان إلى موطنه فرنسا سنة 1635م، ومعه 42 أسيرا استطاع افتداءهم، ما ترك أثراكبيرا في باريس، انظر:

A Jal: Dictionnaire critique de biographie et histoire, Henri Plan imprimeur éditeur, Paris, France, 1867, p301.

[4] H D de Grammont: un manuscrit du Père Dan, revue Africaine, v27, n°157, janvier- février 1883, Adolphe Jourdan libraire éditeur, Alger, Algérie, p11-12.

[5] حسن أميلي: تاريخ باربارية وقراصنتها للراهب الفرانسيسكاني بيير دان، مجلة المناهل، ع55، 1 جوان 1997، وزارة الشؤون الثقافية، المملكة المغربية، ص318.

الجهادية انطلاقا من مراسي طرابلس وتونس والجزائر وتطوان وسلا، حيث قدم نظرة شمولية عن مواصفات العمل الجهادي البحري من مقوماته إلى نتائجه السلبية على العالم المسيحي، كما ربط بين القرصنة في العصر القديم والعصر الحديث مستخدما الوثائق المتوفرة لدى الكنيسة الفرنسية والقصر الملكي بباريس، معززا ذلك بما شاهده خلال رحلته إلى شمال إفريقيا واستقاء المعلومات من الروايات المباشرة لرجال البحر والقناصل وغيرهم من الفاعلين آنذاك، وقد طبع الكتاب برعاية رسمية من السلطات الفرنسية العليا[1].

نقل الكتاب أوضاع الجزائر ومدينتها ودورها –القرصاني– في خمس فصول، تطرق فيها الأب دان لتاريخ الجزائر منذ العهد الروماني إلى غاية العثماني ذاكرا أوضاعها العامة وعلاقاتها الخارجية مع الدول الأوروبية والصراع ضد الإسبان والعقبات التي تعرضت لها بعثة الثالوث المقدس في عمليات الافتداء.

تجدر الإشارة أن الكتاب تطرق أيضا لتونس وممالك المغرب وباقي المدن الإسلامية، كما تطرق للدين الإسلامي في شمال إفريقيا و الواقع الاجتماعي في المنطقة، وقد خصص 8 فصول لأساليب العمل القرصاني ونتائجه، وكذا موضوع الأعلاج[2] و أدوارهم، ومعاناة الأسرى المسيحيين وافتدائهم، معرجا على أدوار تنظيم الثالوث المقدس في ذلك[3].

ب– رحلة الطبيب الألماني جوهان إرنست هابنسترايت Johann Ernest Habenstreit:

هابنسترايت عالم أحياء و طبيعة و رحالة ألماني، ولد في 15 فيفري 1703م بمنطقة "نوستادت بأورلا Neustadt-sur-l'Orla"، وتوفي بـ"لايبزيغ Leipzig" في 5 ديسمبر 1757م، تحصل سنة 1730م على شهادة الدكتوراه، وبعد عودته من رحلته إلى شمال إفريقيا عين أستاذا بجامعة لايبزيغ أين درس لسنوات طويلة علم وظائف الأعضاء والجراحة، التشريح وعلم الأمراض، وقد أتقن الأدب كإتقانه للعلوم، إذ نظم قصيدة لاتينية بعنوان "الإنسان" كان له العديد من المؤلفات في مجال علم الأحياء والطب والكيمياء، إضافة إلى رسائله للملك "أوغيست الثاني Auguste2" والمتعلقة بحيثيات رحلته لشمال إفريقيا، والتي ضمنت في مجموعة رحلات "بيرنولي Bernoulli"[4].

[1] حسن أميلي: المرجع السابق، ص315-316.

[2] الأعلاج هم العبيد الأوروبيين الذين اسلموا، انظر محمد السعيد بوبكر: العلاقات السياسية الجزائرية الاسبانية خلال القرن 12 هـ / 18 م، مذكرة ماجستير، إش مختار حساني، جامعة غرداية، الجزائر، 2010-20011، ص 60.

[3] حسن أميلي: المرجع نفسه، ص319-322.

[4] M Hoefer: Nouvelle Biographie général depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours, t23, Firmin Didot frères fils et Cie éditeurs, Paris, France, sd, p683-684.

كلف ملك بولونيا ومنتخب الساكس "أوغيست الثاني2 (1670-1733 م)" هابنسترايت برئاسة بعثة علمية إلى شمال إفريقيا سنة 1731م، بهدف ملاحظة وجمع معلومات طبيعية، عن المعادن والنباتات والحيوانات الغريبة هناك، لإثراء رصيد المجموعات الملكية، وقد ضمت البعثة العديد من المختصين والعلماء، و كان مخطط سير البعثة يصل إلى غاية غينيا، إلا أنهم اقتصروا على شمال إفريقيا فقط، وصلت البعثة إلى الجزائر يوم 16 فيفري 1732م، وإلى تونس في 17 أوت 1732م، ثم إلى طرابلس في 26 سبتمبر 1732م، ثم عاد هابنسترايت ومن معه إلى تونس في 14 مارس 1733م أين علم بوفاة الملك أوغيست الثاني، حيث وصلهم أمر استدعاء بعدها بقليل، وحلوا بهامبورغ يوم 15 جويلية 1733م[1].

كانت رحلة هابنسترايت على شكل رسائل[2] موجهة للملك أوغيست الثاني، أطلعه فيها على ما شاهده أو تعرف عليه أو جلب انتباهه أثناء سفره في الجزائر وعند انتقاله لتونس وطرابلس، وقد كانت وصفا دقيقا لأوضاع هذه المناطق وتعبيرا عن آرائه، و سجل الواقع كما تعرف عليه، ما جعلها تقريرا أدبيا عن مهمة علمية للتعرف على طبيعة البلاد وسكانها والحيوانات والنباتات الإفريقية والوقوف على معالم الحضارة الرومانية، ضمت الرسالة الأولى مغادرته لألمانيا وتوجهه لمرسيليا ثم وصوله إلى الجزائر، بين فيها تقاليد السكان وأوضاعهم وسلوك حاكم الجزائر ونظام الجيش وظروف محاولة الإسبان استعادة وهران بعد أن طردوا منها سنة 1708م، ونقل في رسالته الثانية المؤرخة في 1 جوان 1732م أخبار جولته مع فرقة الجند (المحلة) بقيادة الآغا في الداخل وعبر مدن مليانة وسور الغزلان والبويرة، و أما الرسالة الثالثة فقد كانت بتاريخ 31 أوت 1732م، يروي فيها ما شاهده عند انتقاله من مدينة الجزائر إلى عنابة وحلوله بقسنطينة[3] ثم القالة ثم طبرقة وباجة، وكانت الرسالة الخيرة في 5 أكتوبر 1732م، ذكر فيها أخبار سفره من تونس إلى طرابلس وظهرت فيها ملاحظات قليلة إذ لم يتمكن من الانتقال إلى الداخل.

[1] Christian Le Roy: Une excursion à Leptis Magna en 1732, Bulletin de correspondance hellénique, v100, n°1, 1976, l'école Française d'Athènes, Athéna, Grèce, p373-374.

[2] لقد كان ذلك بناء على تعليمات تلقاها هابنسترايت تفرض عليه مراسلة الملك بصفة دورية لإطلاعه على مستجدات الرحلة، انظر:
Christian Le Roy: ibid, p374.

[3] شرعت البعثة في رسم مدينة قسنطينة، الجسر وقوس النصر ومختلف القنوات، وقد كان هذا بمرافقة من فارسين لحمايتها، إذ تعرضت البعثة للإهانة عدة مرات من قبل السكان، حيث ولأنهم كانوا في عدد قليل ولفحصهم المدينة بدقة اعتبروا جواسيس إسبان، انظر:
Jocelyne Dakhlia: a livre couvert-une tension des écritures et des écrits entre Europe et Islam a l'âge moderne, revue du Centre d'histoire, n°26, 2007, Université Clermont Auvergne, France, p28.

ألقت الرحلة الضوء على فترة مهمة في تاريخ الجزائر[1] وتونس وطرابلس الغرب وهي الربع الأول من القرن الثامن عشر، حيث استقلت عن الدولة العثمانية سياسيا (تونس 1705م، طرابلس الغرب 1711م، الجزائر 1717م)، كما تضمنت معلومات هامة عن علاقة الحكام بالسكان في المدن والأرياف، وصلاحيات الديوان ومكانة الجيش في النظام السياسي والهياكل الإدارية، والعلاقات مع أوروبا، بالإضافة إلى المعلومات عن السياسة الضريبية لحكام الإيالات الثلاث والحملات العسكرية ضد الرعية، ومختلف الانتفاضات، وعرضت الاستعدادات الجزائرية لصد الإسبان عن احتلال وهران والمرسى الكبير (1732م)، كما عكست الرحلة مدى اهتمام الأوروبيين بمناطق النفوذ العثماني في عالم البحر المتوسط ودراستهم للأوضاع الطبيعية والأحوال الاجتماعية والاقتصادية السائدة بها لتوظيفها في مخططاتهم الاستعمارية، وتظهر مدى اهتمامهم بالآثار الرومانية ودلالاتها لمحاولة إحياء معالمها بشمال إفريقيا[2].

ج – رحلة الدكتور توماس شاوThomas shaw :

ولد توماس شاو حوالي سنة 1692م بمنطقة "كندل Kindel" الواقعة بـ"واستمورلاند Westmoreland" إنجلترا[3]، وتوفي سنة 1751م، وهو عالم أديان ورحالة إنجليزي[4]، درس اللغة العربية والعبرية واليونانية واللاتينية بجامعة أكسفورد، ورسم كاهنا بالكنيسة الأنجلوكانية[5] سنة 1720م، وفي نفس السنة عين قسا بالقنصلية البريطانية بالجزائر، كان يولي اهتماما كبيرا للتاريخ الطبيعي وخاصة النباتي، وعلم الفلك والأرض[6]، إذ يعتبر من كبار علماء إنجلترا المتمكنين في الجغرافيا وعلم الآثار، الأدب والتاريخ الطبيعي واللغات، و له اكتشافات كثيرة

[1] ذكر هابنسترايت تاريخ مدينة الجزائر قبل إلحاقها بالدولة العثمانية، وحدود الإيالة الجغرافية، وطبقات المجتمع وعاداته وتقاليده ونفوذ شيوخ القبائل، والمرابطين وأحوال أهل الذمة، وأوضاع الأسرى الأوروبيين بالجزائر، ومختلف الأعياد الدينية، وموارد الخزينة كما تحدث عن النظام السياسي في الجزائر والقضاء والتقسيم الإداري والعمران الجزائري، انظر: إلياس سبوعي وحميد آيت حبوش: أدب الرحلة الأوروبية كمصدر هام لتاريخ الجزائر في العهد العثماني –رحلة العالم الألماني ج أو هابنسترايت– أنموذجا، مجلة عصور الجديدة، مج9، ع3 ، نوفمبر 2019م، جامعة أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، ص258–268.

[2] انظر: تقديم ناصر الدين سعيدوني لترجمته لرحلة هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1732م، دار الغرب الإسلامي، تونس، د ت، ص16-18.

[3] Paul Ackerman: dictionnaire biographique universel et pittoresque, t4, Aimé André libraire éditeur, Paris, France, 1834, p255.

[4] Jean Gray: op.cit, p36.

[5] الأنجلوكان: مصطلح يطلق على من ينتمي طائفيا لكنيسة إنجلترا أو الكنائس التي انفصلت عنها، وهو مصطلح متكون من الإنجيل وإنجلترا، ويعتبر مذهب الإيمان الأنجلوكاني أحد أكبر العقائد البروتستانتية الحالية والمنتمية إلى البروتستانت الإصلاحيين، انظر: عبد الله بن عبد الرحمان الميمان: نشأة الطائفة الأنجليكانية بين تاريخيها وعقيدتها–دراسة وصفية–، مجلة العلوم الشرعية، مج12، ع1، جويلية 2018، جامعة القصيم، المملكة العربية السعودية، ص191.

[6] Zehor Zizi: Thomas Shaw au Proche-Orient 1721-1722, revue de la société d'études anglo-américaines des XVIIe er XVIIIe, n°27, 2010, Université de Lille III (Charles de Gaulle), France, p23-24.

وأسهم في شرح العديد من الكتب القديمة[1]، عاش في الجزائر لمدة 12 سنة[2] سافر خلالها إلى مصر وسوريا والقدس و عاد من سفره في جوان 1722م انشغل كثيرا بالجزائر وتونس وهذا ما يظهر في كتابه.

احتوى الكتاب على معلومات جغرافية وبيانات نباتات وحيوانات ومعلومات جيولوجية مرتبة بدقة، ووجه

للعلماء والمتعلمين في عصره[3]، نشر في مدينة أكسفورد سنة 1738م وترجم للغة الفرنسية ابتداء من سنة 1743م[4] وأعيد نشره ملخصا بنفس اللغة سنة 1830م تحت عنوان لمحة تاريخية إحصائية طبوغرافية عن دولة الجزائر لمصلحة جيش المشاة الإفريقي–الاحتلال–، كما ساعد هذا الكتاب على ميلاد علم الآثار الفرنسي بالجزائر[5].

تحدث شاو في هذا الكتاب عن الجزائر[6] بصفة عامة حيث سماها "مملكة الجزائر"، وأرجع اعتبارها الكبير آنذاك لتبعيتها للأتراك، أورد موقعها الجغرافي والفلكي مضمنا أبعادها من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب[7]، ووصف مختلف تشكيلاتها التضاريسية وخاصة جبال الأطلس وامتدادها، الصحراء، كما ذكر النظام الضريبي السائد فيها وكيفية التحصيل–المحلات– ذاكرا تهرب الرحل من دفعها، وتطرق إلى التقسيم الإداري في إيالة الجزائر في تلك الفترة: بايلك تلمسان[8] غربا، بايلك التيطري وبايلك قسنطينة شرقا، وتعرض للنظام الإداري فيها وطرق تعيين البايات، وأورد الجانب التاريخي للجزائر ذاكرا مملكة نوميديا وموقعها، بالنسبة للجانب الطبيعي فقد قارن الدكتور شاو جبال الأطلس الصحراوي والتلي العالية بجبال الألب، وحاول تقدير ارتفاع الهضاب، وذكر البساتين والغابات وأصول تسمياتها، كما لم يغفل الجانب البشري إذ ضمن سكان الجزائر وتقسيماتهم–البدويين، القبائل...– ومناطق انتشارهم وكذا مختلف أحوالهم –

[1] Thomas Shaw: Voyage de M Shaw M D dans plusieurs provinces de la barbarie et du levant, tr anonyme, chez Jean Neaulme, Amsterdam, Hollande, 1743, p3-4.

[2] DR Shaw: voyage dans la régence d'Alger, tr J Macarthy, Marlin éditeur, Paris, France, 1830, p1.

[3] Zehor Zizi: op.cit, p24.

[4] ترجم الكتاب أيضا إلى اللغة الألمانية سنة 1765م، الهولندية سنة 1773م، ويعتبر مرجعا هاما في تاريخ شمال إفريقيا خاصة، انظر:
Zehor Zizi: ibid, p23.

[5] Pierre Morizot: la naissance de l'archéologie romaine en Algérie, histoire et archéologie méditerranéennes sous Napoléon 3, 21 e colloque de villa Kérylos, Beaulieu, France, 8-9 Octobre 2010, p158-159.

[6] تجدر الإشارة بأن الكتاب لم يتطرق للجزائر فقط وإنما تعدى إلى باقي الإيالات التي زارها الدكتور شاو: تونس، مصر، سوريا، بيت المقدس.

[7] ضمن الدكتور شاو كتابه بخريطة عن الجزائر، ورغم أنها غير دقيقة جغرافيا إلا أنها تظهر مواقع لمدن ساحلية كوهران، القل، ومدنا تاريخية كسطيف وجميلة وبسكرة وتبسة...، انظر: Pierre Morizot: op.cit, p158

[8] الأرجح أن تسمية الدكتور شاو لبايلك الغرب ببايلك تلمسان راجع أن مدينة وهران في فترة نشر كتابه–1738م– كانت لا تزال تحت الاحتلال الإسباني، حيث حررت سنة 1792م.

صحية، اجتماعية، ثقافية...-[1]، شبه الدكتور شاو في كتابه الأوضاع في شمال إفريقيا بالأوضاع في باقي الإيالات العثمانية و خاصة من الجانب الثقافي[2].

المبحث الثالث: كتب الأسرى:

أ- طوبوغرافيا تاريخ الجزائر العام لفراي ديغو دي هايدو Frey Diego de Haedo:

فراي ديغو دي هايدو، مؤرخ إسباني ولد في وادي "كارانسا Carença" وتوفي في النصف الأول من القرن 17م ينحدر من عائلة عريقة، أصبح قسيسا ثم رئيس كنيسة "فروميستا Fromista"، أنهى كتابه سنة 1605م تطرق فيه لحياة الأسرى[3] البسطاء وضمنه معاناتهم، كما ذكر فيه معلومات تاريخية وجغرافية نادرة، نشره في إسبانيا، ببلد الوليد سنة 1612م، وقد كان موضوعه جديدا آنذاك، كتبه بأسلوب بسيط، كما تطرق فيه للأديب الإسباني ميغيل دي سيرفانتس[4].

يعتبر كتاب طوبوغرافيا تاريخ الجزائر العام من الوثائق الهامة المرتبطة بالجزائر التي كانت محطة الأسرى المسيحيين ومركزا هاما للقرار العثماني، إذ أن مؤلفه من الذين عايشوا الأسر في الجزائر، لذلك تعتبر شهادته وثيقة تاريخية هامة. ينقسم الكتاب إلى بابين كبيرين الأول خصصه لتاريخ حكام الجزائر العثمانيين، والثاني خصص لوصف مدينة الجزائر وتعرض في الجزء الأول لحياة الأسرى المسيحيين وتطرق في الجزء الثاني للأسرى الذين ماتوا في سجون الجزائر خاصة المسيحيين الإسبان منهم، أما في الجزء الثالث فقد تطرق للمرابطين الجزائريين ورجال الزوايا.

اعتمد هايدو في كتابه على شهادات حية لبعض الأسرى وكذا على مصادر تاريخية كوصف إفريقيا لليون الإفريقي وجغرافية إستربون، وقد خصص 41 فصلا للحديث عن الحياة الاجتماعية وعادات الجزائريين[5]، حيث نقل هايدو معلومات دينية، ديموغرافية، اجتماعية، سياسية عسكرية واقتصادية وكذا طبيعية حول إيالة الجزائر، كما ركز على التنوع المجتمعي لسكان مدينة الجزائر والمتكون من أندلسيين، عرب، أتراك، قبائل وغيرها، و أعطى معلومات عن النظام الدفاعي لمدينة الجزائر وأسطولها العسكري، بغرض تحذير سلطات بلده من الخطر الجزائري على إسبانيا وكذا إعطائها

[1] Thomas Shaw: travels or observations relating to severel parts of barbary and the levent, Oxford Theater, Oxford, United Kigdom, 1738, p3-8.

[2] Thomas Shaw: Voyage de M Shaw M D dans plusieurs provinces de la barbarie et du levant, op.cit, p1-2.

[3] وقع هايدو في الأسر سنة 1578م، حيث أسره بحارة جزائريون، ولمدة 3 سنوات عايش معاناة الأسرى المسيحيين في الجزائر، استقبل بحفاوة بعد تحريره، ثم عين رئيسا لكنيسة فروميستا بقشتالة نظرا لمكانته الكبيرة، انظر:

H D de Grammont et L Piesse: Diego de Haedo religieux et abbé de Fromesta, revue Africaine, v27, n°157 , janvier-février 1883, Adolphe Jourdan libraire éditeur, Alger, Algérie, p205-206.

[4] M Hoefer: op.cit, p50-51.

[5] حميد آيت حبوش: أهمية المصادر الأوروبية في كتابة تاريخ الجزائر، مجلة الحوار المتوسطي، مج2، ع1، 3 أكتوبر 2010، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، ص73.

حجة لتحرير جميع الأسرى، كما تطرق هايدو للحياة الدينية في الجزائر بإسهاب وخاصة دور المرابطين والأئمة وأهمية دور المدارس القرآنية في نشر القيم والأخلاق الإسلامية المقدسة وتعليم اللغة العربية، والاحتفالات و الأعياد الدينية:رمضان عيد الفطر، عيد الأضحى، المولد النبوي[1].

ب– مذكرات "تيدنا Thédenat":

ولد تيدنا بمنطقة "يوزيس Uzès" سنة 1758م، من عائلة كاثوليكية ميسورة الحال، تمت تربيته ليكون رجل دين إذ درس في مدرسة كاثوليكية، لكنه فر منها وانخرط في الجيش، إلا أنه ترك الجيش وأصبح كاتبا لدى وكيل المقاطعة، ثم انتقل إلى "ليفورن Livorne" وبعدها "قادش Cadix[2]" أين عاش في منزل قريب والده، بعدها قرر ممارسة مهنة نقل الخمور من "ملقا Malaga" إلى "مارسيليا Marseille" على سفينة إسبانية، إلى أن أسره بحارة جزائريون[3].

رغم أن العلاقات الجزائرية الفرنسية كانت جيدة في تلك الفترة، إذ كان الداي يطلق سراح الأسرى الفرنسيين، إلا أن تيدنا أسر عندما كان على سفينة إسبانية والمعتبرة تابعة لدولة عدوة للجزائر، فكان بمثابة هدية رائعة، اشتراه باي معسكر الذي احتاج لرجل مثقف وشريف لتسيير منزله، ولمدة ثلاث سنوات وسبعة أشهر شغل منصب الخزندار –وزير المالية– عند باي معسكر، الذي كان سخيا معه، كما كان يصطحبه في كل رحلاته، بحيث لا يستطيع أحد إعلامنا بصفات الباي مُحَمَّد الكبير[4] أفضل من تيدنا، والذي كان يرفض محاولات افتدائه نظرا للكرم الكبير الذي حظي به عند الباي، إلا أنه غادر الجزائر وبعد أشهر عاش محنة إذ مرض بشدة وكان يعيش في الشوارع، وقد كتب مذكراته واعترافاته بمستشفى بمدينة "زيوريخ Zurich"، بعدها تقلد منصب نائب القنصل في مدينة "سافون Savone" بإيطاليا، ثم عمل ملحقا للمفوض العام الفرنسي بجنوة، ثم المفوض العام بليفورن، كما تقلد العديد من الوظائف الدبلوماسية بعدها، ومنها نائب القنصل بالإسكندرية، والقاهرة[5]، وبتوتر العلاقات الفرنسية الجزائرية وبداية التخطيط لغزو الجزائر ، بدأ تيدنا بجمع ذكرياته لكتابة مذكرة والتي سماها "نظرة عن إيالة الجزائر Coup d'œil sur la régence d'Alger " وذكر فيها أعمال القرصنة القاسية وأن سلطة الداي والبايات الثلاثة تعتمد على قبضة الجيش–قطاع الطرق–، واقترح إرسال حملة

[1] Ismet Terki-Hassaine: historiographie espagnole moderne sur l´Algérie ottomane, turkiye Arastirmalari literatur Dergisi, cilt8, sayi15, 2010, Bilim ve Sanat Vakfi, turkiye, p431-432.

[2] قادش مدينة بإسبانيا.

[3] أسر تيدنا يوم 2 أفريل 1779م، قبالة شواطئ كتالونيا، وقد عومل بإنسانية وتم بيعه لرجل يهودي بداية، والذي أعاد بيعه لوكيل باي معسكر، انظر: احميده عميراوي: الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني–مذكرات تيدنا أنموذجا–، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2003، ص44–49.

[4] مُحَمَّد الكبير: هو مُحَمَّد بن عثمان ولد مابين 1734–1737م، ابن عثمان الكردي باي التيطري، بعد مقتل والده رعاه صديق والده الباي إبراهيم باي التيطري ثم الغرب 1759–1760م، حظي مُحَمَّد الكبير بثقة إبراهيم، كما صاهره وأشركه في إدارة البايلك، تدرج في المناصب إلى أن أصبح بايا للغرب مابين 1779–1797م، خلالها سجل العديد من الإنجازات، انظر: طاهر تومي: العلاقات الجزائرية الإسبانية ما بين القرنين 16 و18م على ضوء المصادر المحلية، مذكرة ماجستير، إش عبد القادر صحراوي، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2014–2015م، ص74.

[5] أحيل تيدنا على التقاعد سنة 1825م، انظر: عميراوي احميده: المرجع السابق، ص42.

ضد الجزائر[1] لاحتلالها وأن أموال خزينة الداي –بعض المليارات حسبه– ستعوض كل التكاليف، وقد اختار إنزال الجيش في "تنس" وحصار الجزائر بالأسطول وإجبار الداي على تسليم ذهبه والسفن وجعل الإيالة منطقة متحضرة وتجارية[2].

كتبت مذكرات تيدنا في زوريخ عام 1785م، وكانت على شكل اعترافات منه، إذ عرض فيها أخطاءه، و يعتبر تيدنا ممن حاولوا فهم العالم الإسلامي، رغم أنه لم يكن كاتبا لامعا، نقلت المذكرات مجريات حياته في قصر باي معسكر ومغامراته مع النساء وكذا عقبات حصوله على الحرية، إذ عرض فيها رواية أسره وبيعه ليهودي والذي باعه بدوره لباي معسكر عن طريق وكيله، وكذا تطرق لمنصبه كخزندار ومغامراته مع نساء القصر، وعلاقته بوجهاء القوم، وكذا تسييره لشؤون بايلك معسكر، ورحلة جمع الضرائب–المحلة– وكذا رحلة تأدية الدنوش–الكبرى– للجزائر العاصمة، و تمكنه من افتداء نفسه وتمسكه بالمسيحية[3].

تعتبر مذكراته من أندر مصادر المعلومات عن غرب الجزائر في القرن 18م، حيث عاش تيدنا ما يقارب الأربع سنوات في معسكر، كما شغل وظيفة عالية، ورغم أنه كان مبتدأ في مجال التأليف لنقل معلومات دقيقة إلا أنه عرف بشخصية الباي مُحَمَّد الكبير محرر وهران[4] من الإسبان، كما نقل الحقيقة ثابتة، و أورد أن الأسر والافتداء في مدينة الجزائر بين 1779م و1782م لم يجلب موارد كبيرة للخزينة، لكن تأتي الأرباح من الزراعة خاصة في فترة حكم مُحَمَّد بن عثمان الذي مدحه تيدنا [5]. حيث تظهر قيمة مذكرات تيدنا في المعلومات التي قدمها عن حياة المجتمع الجزائري في الداخل، فهذه الوثيقة مهمة جدا للمؤرخ المهتم بتاريخ الجزائر في القرن 18م خاصة وأنها تعتبر صادقة في ذكر الحقيقة[6].

---

[1] لم يجسدها نابليون لانشغاله بمناطق أخرى واكتفى بمناورة بحرية غرب المتوسط، وأرسل مبعوثين للتفاوض مع الداي بشأن الخلافات القائمة مع الجزائر وإيجاد حلول وهما "هولان" و"بيرج"، انظر: عبد القادر قندوز: المشاريع الفرنسية لاحتلال الجزائر ما بين 1741 و1802م، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مج6، ع14، جوان 2018، مركز الحكمة للبحوث والدراسات، الجزائر، ص74.

[2] Marcel Emrit: les aventures de Thedenat-esclave et ministre d'un bey d'Afrique, revue Africaine, v92, société historique Algérienne, Alger, Algérie, 1948, p143-147.

[3] احميده عميراوي: مذكرات تيدنا مصدر نادر في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، مج19، ع1، 15 فيفري 2004م، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر.

[4] تحرير وهران: حاصر مُحَمَّد بن عثمان وهران، وكثف من حملاته عليها، كما انتصر على الإسبان في معركة خارج أسوارها سنة 1780م، وقطع عنهم الماء يوم 14 سبتمبر 1784م، واحتل البرج الأحمر يوم 26 سبتمبر 1784م، واستمرت المعارك، كما ضرب زلزال عنيف في الليلة ما بين 8 و9 أكتوبر 1790م ألحق خسائر كبيرة بالمدينة، ومات فيه 3000 شخص من سكانها وجندها، كما استأنف مُحَمَّد بن عثمان الهجوم بضراوة، إذ وصلت الإمدادات الإسبانية للقلعة، إلى أن تقدم الإسبان في أفريل 1791م، بطلب صلح لكن الداي مُحَمَّد عثمان باشا رفضه، واشترط استسلامهم دون قيد، وفي 12 جويلية 1791م توفي مُحَمَّد عثمان باشا، خلفه حسان باشا واستمرت الأعمال العسكرية حول وهران، وألحت إسبانيا على الصلح مستجيبة للشروط الجزائرية وهذا ما قبله حسان باشا ورجال الديوان، إذ بدأ انسحاب الإسبان منها يوم 17 ديسمبر 1791م، ودخلها الباي مُحَمَّد بن مصطفى يوم 24 فيفري 1792م، انظر: أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1965م، ص523-527.

[5] Marcel Emrit: op.cit, p154-156.

[6] احميده عميراوي: مذكرات تيدنا مصدر نادر في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني، المرجع السابق، ص214.

ج- مذكرات أسير الداي "جيمس ليندر كاثكارت James Leander cathcart"قنصل أمريكا في المغرب:

يقول جيمس كاثكارت في مذكراته أن اسم عائلته "كاثكارت" مشتق من بارونية كاثكارت الواقعة في ولاية "رانفيو" باسكتلندا، أين توجد مدينة كاثكارت، وأنه ولد في مقاطعة "ميث الغربية" سنة 1767م، وقد هاجر لأمريكا في سن مبكرة، بعد أن وضعه والده تحت كفالة قريبه القبطان "جون كاثكارت" الذي عين ضابط صف في البارجة الأميركية "كونفدراسي"[1]، أسره بحارة جزائريون عند الشواطئ البرتغالية حيث كان على متن السفينة الأمريكية "ماريا" التي انطلقت من بوسطن[2]، وهذا يوم 25 جويلية 1785م، وبين سنوات 1787-1792م خدم ككاتب بحرية، وكاتب بسجن غاليرا، ثم كاتب الوزير، رقي بعدها إلى كبير أمناء الداي سنة 1792م، وشارك في المفاوضات الأمريكية الجزائرية ثم حرر سنة 1796م، و في الفترة مابين 1797م إلى غاية 1817م خدم قنصلا في طرابلس، و دبلوماسيا في تونس ثم قنصلا عاما في الجزائر، ثم تونس، البرتغال، إسبانيا، ثم خدم في الخزينة الأمريكية من 1820م إلى 1840م، توفي يوم 6 أكتوبر 1843م بالعاصمة واشنطن.

نقل كاثكارت في مذكراته أحوال الأسرى في مدينة الجزائر والثقافة واللباس فيها، كما وصف شهر رمضان، وحركة السفن، العلاقة بين الإيالة وباقي البلدان، و سيرورة مفاوضات إطلاق سراح الأسرى المسيحيين، والعلاقات الجزائرية الأمريكية، كما أعطى إحصائيات عن السفن المستولى عليها من قبل الجزائريين و كذا الأسرى بين سنوات 1785م و1795م[3].

لم يسجل كاثكارت يومياته لتنشر، إذ لم تنشر إلا بعد وفاته بنحو نصف قرن من الزمن وقد تولت ابنته ذلك، ولم تحمل الطبعة اسم الناشر ولا تاريخ النشر، حيث احتوت على اسم المطبعة فقط "هيرالد" والمتواجدة بمدينة لابورت، ونشر باللغة الإنجليزية الواضحة[4].

يقدم الكتاب العديد من المعلومات التاريخية حول العلاقات الجزائرية الأمريكية آنذاك وكذا علاقات الجزائر بالدول الأوروبية، ويصف المؤسسات والمنشآت العمومية في إيالة الجزائر، والحالة الاجتماعية فيها وسجل انطباعاته الشخصية من خلال معاملاته وإقامته في الجزائر فقد تطرق لقنصل السويد "سكجولدر براند" والأب جوزيف من قساوسة بعثة الرحمة[5] الفرنسية والداي حسن وغيرهم[6].

---

[1] جيمس ليندر كاثكارت: مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب، تر وتع وتق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1982م، ص13.

[2] جيمس ليندر كاثكارت: المصدر نفسه، ص17.

[3] Audrey Walker: James L Cathcart papers, Library of Congress, Washington, United States of Amrica, 2003, p4.

[4] جيمس ليندر كاثكارت: المصدر السابق، ص5.

[5] انظر الفصل الأول ص 27.

[6] جيمس ليندر كاثكارت: المصدر السابق، ص6-8.

استغل كاثكارت معرفته بالداي في الوصول إلى طبيعة العلاقات الجزائرية الخارجية آنذاك حيث تحدث بإسهاب عنها إذ تطرق للتنافس الفرنسي البريطاني على الود الجزائري، والوساطة لإبرام معاهدات السلام مع الجزائر وكذا دون كل شيء في شأنه خدمة بلده الأم، إضافة للعلاقات المغربية بالبلدان الأنجلوساكسونية، وتجدر الإشارة بأنه قد تحرى الموضوعية التامة في مدوناته[1].

معظم ما كتب حول الفترة العثمانية من قبل الأجانب كان منصبا على مدينة الجزائر، وعلى ما يهم بلدانهم من نشاطها كالاحتكار التجاري ومشاكل الجهاد البحري وافتداء الأسرى، ودفع الإتاوات والهدايا من طرف الدول الأوروبية و ما انجر عن هذا من أعمال عدائية وهجمات انتقامية شنها الأوروبيون على السواحل الجزائرية، وحتى وإن شملت المناطق خارج مدينة الجزائر فإنها لا تبرز إلا الفوضى التي كانت في البيالك لجعل متتبع هذه الدراسات يسلم بأن مثل هذه الحالة لا يمكن أن تصطلح إلا بالتدخل الأوروبي، أما عن الإدارة وحكومة الإيالة وكل ما يتصل بها من أوضاع فقد أهملت في معظم هذه الكتابات، التي لم تعكس بصدق وضعية البلاد وحالة السكان نظرا لأن كتابها لم يعيشوا الأحداث أو يتفاعلوا معها إلا من موقع المتفرج وسجلوا ما يتماشى مع طباعهم ونظرتهم الخاصة إلى الحياة، كما أن هذه الدراسات كانت مغرضة هادفة لخدمة الاستعمار الأوروبي وأخضعت التاريخ لسياسته، ما يحط من قيمتها العلمية ويقاربها لمستوى الدعاية المغرضة.

اعتبرت الفترة العثمانية في الجزائر عند هذه الكتابات عاملا حال دون اكتساب الجزائر مقومات الدولة الوطنية ما عرقل تطور النظم الاقتصادية والاجتماعية لاستبداد العثمانيين وعدوانهم، وقد صورت هذه الكتابات الجزائر كمنطقة جغرافية يتعاقب عليها الحكم باعتبارها منطقة فراغ حضاري.

ما يؤخذ على الكتابات الأوروبية خاصة محدودية وضآلة الإنتاج، واتسمت بسرعة الأحكام وسطحية التفسير وعموميته، وهذا ما ينقص من اعتبارها دراسة تاريخية جادة، إلا أن كل هذه الانتقادات و التحفظات لا تلغي أهمية هذه المؤلفات واحتوائها على شهادات وأوصاف دقيقة وتواريخ مضبوطة وإحصائيات وقوائم للحكام وتحليلات وتقارير وتفاصيل مهمة لا تتوفر خارجها وبالتالي لا يمكن الاستغناء عنها في دراسة تاريخ الجزائر في العهد العثماني[2].

[1] مصطفى بن حادة: نظرة بعض القناصل الأمريكيين في العلاقات الجزائرية الفرنسية في العهد العثماني، مجلة الخلدونية، مج9، ع1، 1 جوان 2016، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، ص131-132.

[2] حمدون بن عتو: الصورة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للجزائر خلال العهد العثماني 1518-1830 من خلال كتب الرحالة والجواسيس ورجال الدين – الكتابات الفرنسية والإسبانية نموذجا-، أطروحة دكتوراه، إش حنيفي هلايلي، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2016-2017، ص58-59.

الفصل الأول

الأسر و الأسرى في الجزائر خلال الفترة العثمانية

المبحث الأول: الجزائر وعمليات الأسر في البحر الأبيض المتوسط.

المبحث الثاني: حياة الأسرى ومعاملتهم في الجزائر

المبحث الثالث: افتداء الأسرى.

الفصل الأول : الأسر و الأسرى في الجزائر خلال الفترة العثمانية :

عرفت الجزائر خلال العهد العثماني نشاطا بحريا كبيرا لم تشهد مثله أي دولة أخرى في حوض البحر الأبيض المتوسط و هذا بفعل قوة أسطولها البحري و كذا شجاعة بحارتها و رياسها و كذا طبيعة علاقتها مع دول الضفة الشمالية لحوض المتوسط و التي اتسمت في معظم أوقاتها بالعداء الشديد، و هو الأمر الذي أثر على مختلف جوانب الحياة فيها خاصة الجانب الاقتصادي الذي عرف تطورا كبيرا من خلال ما يعرف بالغنائم البحرية التي كانت تعتبر من بين أهم مصادر دخل الخزينة خلال هذه الفترة كما اثر أيضا على الجانب الاجتماعي حيث ساهم هذا النشاط في ظهور فئة جديدة في المجتمع الجزائري و هي فئة الأسرى و هو ما سنتطرق إليه بالدراسة من خلال أسطر هذا الفصل .

المبحث الأول: الجزائر وعمليات الأسر في البحر الأبيض المتوسط:

1- تعريف الأسر:

***لغة:** ٱلأَسِيرُ مَأْخُوذٌ مِنَ الإِسَارِ وَ هوَ القَيْدُ لِأَنَهُمْ كَانُوا يَشُدُّونَ الأَسِيرَ بِالْقَيدِ، فَسُمِيَ كُلُ أَخِيذٍ أَسيرًا وَ إن لَمْ يُشَدَّ به كَمَا سميَ كل مَحْبُوسٍ في قَيْدٍ أَو سِجْنٍ أَسيرًا، و الجَمع أَسْرَى و أُسَارَى بِالضَّمِ و يجمَع أَيضًا عَلَى أَسَرَاءْ.

ٱلأُسَارَى: بضم الهمزة على وزن فُعَالَى مثل سُكَارَى و هو جمع أَسِيرْ، وَ يجمع أيضا على أُسَراءْ و أَسْرَى و يقال للأسير أَخِيذْ و المقَيدْ و المسْجُونْ و يطلق على الذكر و الأنثى فيقال: رجل أَسِيرْ و امرأة أَسِيرْ[1].

قال " **سيبويه**" " قالوا في جمع كَسْلَان كَسْلَى، شبهوه بِأَسْرَى، كما قالوا: أُسَارَى شبهوه بِكُسَالَى، و وجه الشبه أن الأَسْرَ يدخل على الإنسان مكرهًا كما يدخل الكسل".[2]

***اصطلاحا:** هناك عدة تعريفات حيث:

- عرف الماوردي الأسرى بقوله " هم المقاتلون من الكفار إذا ظفر المسلمون بأسرهم أحياء "
- أما ابن جماعة فقد عرفهم بقوله: "الرجال الأحرار العقلاء المقاتلون إن أخذهم المسلمون قهرا بالغلبة " و تخصيص المقاتلين بالأسرى كما جاء في التعريفين قد ورد على سبيل التغليب و ليس قيدا (أي أن المقاتلين هم في الغالب الذين يقعون في الأسر)، فقد عد ابن تيمية غير المقاتلين أسرى و ذكر أمثلة على ذلك فقال" أن تلقيه السفينة إلينا أو يضل الطريق أو يؤخذ بحيلة".

[1] حسين شرفه: هدي النبي صلى الله عليه و سلم في التعامل مع الأسرى، مجلة الحقوق و العلوم السياسية، مج 01، ع 08، جوان 2017م، جامعة عباس لغرور، خنشلة، الجزائر، ص 75- 76.

[2] عثمان رزوق: حماية الأسرى بين الشريعة و اتفاقية جنيف، مذكرة ماستر، إش مُحَّد لطفي كينة ، جامعة حمة لخضر،الوادي، الجزائر، 2016-2017م، ص 8.

- إذن يمكن القول أن الأسرى " هم المقاتلون الأعداء و من في حكمهم، ممن وقعوا في أيدي المسلمين أحياء و تجري عليهم أحكام خاصة."[1]

2- الأسر في البحر الأبيض المتوسط:

كانت عمليات الأسر خلال الفترة الحديثة موجهة في الغالب ضد أصحاب البشرة البيضاء -الرقيق الأبيض- (Esclave blanc)، حيث برز الصراع الإسلامي المسيحي في المتوسط، معطيا شرعية هذه الهجمات البحرية وجعلها مقدسة، فقد نظر إليها المسلمون كـ"جهاد بحري" ورأى فيها المسيحيون "حربا مقدسة"، ولهذا كانت ذات طابع مرغوب عند توجيهها ضد القوى الدينية المعادية، في حين تنبذ إذا ما وجهت ضد القوى الدينية الصديقة.

إن الملاحظ خلال القرن 16م أن القرصنة كانت تثار وتدعم من قبل المدن التي ترغب أن تصبح مراكز تجارية ومن أهم هذه المدن "فاليتا" المؤسسة من قبل القراصنة المالطيين سنة 1566م، وتعتبر الميناء الرئيسي لمالطا، وكذلك مدينة فيتوريوزا (Vittoriosa) سنغليا (Senglea) وكوسبيكوا (Cospicua)، وتبقى هذه المناطق إضافة إلى الجزائر وليفورن أهم المناطق "القرصانية" في المتوسط خلال القرن 16 و17م[2]، حيث سادت ظاهرة "القرصنة" أو "الغزو البحري" خلال القرون 16، 17، 18م في حوض البحر المتوسط، من الجهتين الإسلامية والمسيحية وقد شكل الأسرى بضاعة للتفاوض والمناورة والاتجار، والاستغلال خاصة في العالم المسيحي والذي في أقل من أربع قرون أسر واشترى وباع حوالي 50 مليون إنسان، وبدرجة أقل مارس المسلمون الأسر كرد فعل ومعاملة بالمثل للأوروبيين[3].

3 - عمليات الأسر الجزائرية في البحر المتوسط:

تعود عمليات الأسر في الجزائر العثمانية في البحر المتوسط إلى أوائل التواجد العثماني بها، حيث بعد هدم الأتراك لقلعة البينيون[4] وطرد الإسبان منها أسروا حوالي 700 إلى 800 مسيحي واستغلوهم في العمل في رصيف المدينة، إضافة إلى أسر حوالي 640 إسبانيا بعد فشل حملة أندريا دوريا سنة 1531م وكان من بينهم معاونه[5]، وبعد هدم قلعة البينيون قاد "إيدن رايس" و"صالح رايس" غارات بحرية واسعة ضد السواحل الإسبانية وأشهرها ضد قائد الأسطول "بورتندو"

---

[1] حسين شرفه: المرجع السابق، ص 76.

[2] بلقاسم قرباش: الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات 1671-1830، أطروحة دكتوراه، إش ودان بوغفالة، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، الجزائر، 2015-2016، ص51-54.

[3] محمد الأمين عطلي: نشاط البحرية الجزائرية في القرن السابع عشر وأثره في العلاقات الجزائرية الفرنسية، مذكرة ماجستير، إش عمار بن خروف، المركز الجامعي بغرداية، الجزائر، 2011-2012، ص100.

[4] قلعة البنيون: أنشأها بيدرو نافارو الإسباني ومعنى اسمها الصخرة العظيمة، بنيت على صخرة تسمى سطفلة سنة 1510م، جعلها حامية عسكرية لمراقبة ميناء مدينة الجزائر الذي تبعد عنه بحوالي 300 متر، انظر: محمد السعيد بوبكر: المرجع السابق، ص28.

[5] عزيز سامح التر: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، ج1، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1989م، ص93-95.

حيث تم الاستيلاء على 6 سفن ضخمة وأحرقت واحدة، وقد انضم بسببها القراصنة الخواص لصفوف خير الدين، كما خلفت معركة مزغرين سنة 1558م بين "حسين باشا" و"آل كودينت" بالقرب من مستغانم عددا هائلا من الأسرى ومقتل "آل كودينت" وأسر ابنه، كما أسر درغوث باشا 6 سفن من سفن السيد الأعظم لمالطا، وقد شهدت الفترة ما بين 1550-1580م تصاعدا ملحوظا للغارات البحرية الجزائرية في المتوسط، ما انعكس على عدد الأسرى المسيحيين في الجزائر، حيث في معركة "وادي المخازن" أو "الملوك الثلاثة"[1] فقد 40 ألف برتغالي حريتهم وكان منهم نبلاء[2].

4- طرق وقوع الأوروبيين في الأسر لدى الجزائريين:

أ- الهجوم على السواحل الأوروبية:

شكلت العديد من سواحل جنوب غرب أوروبا في العهد العثماني أهدافا مباشرة لهجمات البحارة الجزائريين ومنها سواحل جنوة، نابولي، ليفورن، سردينيا، كورسيكا، صقلية ومالطة...، التي تعد أماكن تركز القراصنة الأوروبيين وقد كان نجاح خير الدين في الاستيلاء على حصن البنيون وطرد الإسبان سنة 1529م عاملا هاما في زيادة عزيمته على الجهاد والمقاومة، فهاجم سواحل إسبانيا وأحرق بعض القرى الساحلية و أسر حوالي 200 عائلة، ثم أسر حوالي 6000 شخص بعد هجومه على منطقة ماهون بجزر البليار سنة 1535م، كما تم أسر عدد كبيرا من الإسبان بعد الهجوم على مدن قبالة مضيق جبل طارق، أسر أيضا مراد رايس سنة 1578م الكثيرين بعد الهجوم على شواطئ صقلية وإسبانيا ودخل سليمان رايس جزيرة ماري قرب مضيق جبل طارق سنة 1613م وأسر 120 شخصا ودخل أيضا برفقة مصطفى رايس جزيرة "بورتو سانتو Porto-Santo" بالقرب من جزر الكناري وأسرا 700 من سكانها ووصل عدد الأسرى الفرنسيين المأسورين من قبل الجزائريين بين عامي 1628-1634م 1336 أسيرا بيعوا في سوق البادستان[3].

[1] معركة وادي المخازن: خاضها المغاربة في صيف 986هـ/1578م على أرضهم بمنطقة القصر الكبير تحت قيادة عبد الملك السعدي، وأخيه أحمد المنصور دفاعا عن كيانهم وعقيدتهم وحريتهم، أما البرتغاليون وحلفائهم الأوروبيون فكانوا بقيادة الملك الضون (سيبستيان) مدفوعين بقوة التهصب الديني، والرغبة في احتلال البلاد، وإن تظاهروا أيضا بنجدتهم للملك المخلوع المتوكل الذي استجار بهم بعد فراره من المغرب، وقد حرص الطرف المغربي على الانتصار في هذه المعركة المصيرية، لحماية كيانه ووجوده، وعلى رد الاعتبار لما لحق بالمسلمين من مآسي ومحن على يد الإسبان والبرتغاليين، بينما كان هدف الطرف الثاني ضرب الدولة الإسلام بالمغرب، والاحتلال من جديد لما حرره المغاربة، والتوسع أكثر في احتلال شواطئ المغرب، والهيمنة على الداخل. انظر: جلول بن قومار: معركة وادي المخازن وأثرها في العلاقات المغربية مع دول غرب أوروبا، مذكرة ماجستير، إش عمار بن خروف، المركز الجامعي بغرداية، الجزائر، 2010-2011م، ص7.

[2] بلقاسم قرباش: المرجع السابق، ص54-58.

[3] انظر الفصل الأول ص 21

ب_ اعتراض السفن والمواجهات البحرية:

كانت طريقة اعتراض السفن في عرض البحر من طرق الأسر، ومن ذلك المواجهة البحرية بين مركب جزائري وآخر إسباني في البحر المتوسط سنة 1575م، والذي أسفر عن أسر الشاعر الإسباني ميغيل دي سيرفانتيس والذي كان مقاتلا في صفوف الجيش الإسباني وأخيه رودريغو، حيث كانا على المركب المسمى "الشمس" الذي خرج في 15 سبتمبر 1575م يرافقه مركبان، وقد حدث هذا في نواحي "تروا ماري Troie Maries" على السواحل الفرنسية.

ج–الهجوم على أماكن السيطرة الأوروبية في الجزائر والتصدي للحملات الأوروبية:

ومن ذلك السيطرة على حصن البنيون في 21 ماي 1529م بعد انطلاق قصفه يوم السادس ماي، من طرف خير الدين بربروس حيث أسر حاكمه العجوز دي فيرغاس مع 500 أسير وبعض النساء كانوا قد هربوا من الحصن على دفعات متكررة، اتسمت العلاقات الجزائرية الإسبانية في العهد العثماني بالعداء والذي من مظاهره الحملات العسكرية، ومن أهمها حملة شارل الخامس–شارلكان–[1] على مدينة الجزائر سنة 1541م، التي تصدى لها حسن آغا ابن خير الدين بمساعدة أهالي مدينة الجزائر، حيث هزم شارل هزيمة نكراء أدت به لرمي تاجه في البحر واعتزال الملك، كما شنت فرنسا العديد من الحملات على مدينة الجزائر ردا على القرصنة ومن أهمها على مدينة جيجل سنة 1664م والتي انتهت بانهزام الفرنسيين وأسر 1400 رجل اقتادهم الانكشارية إلى مدينة الجزائر[2].

5– أعداد الأسرى في الجزائر خلال العهد العثماني:

اعتبر سوق مدينة الجزائر واحدا من أهم أسواق الأسرى في البلاد الإسلامية، ولا يمكن التسليم بالتقديرات المطروحة بخصوص أعداد الأسرى والمستخرجة من مصادر أوروبية، ففي سنة 1578م بلغ عدد الأسرى من الفرنسيين والإيطاليين والإسبان والمالطيين قرابة 25 ألفا، وسنة 1635م ارتفع العدد إلى 30 ألف أسير، ومع بداية القرن 18م تراجعت أعدادهم فمن 10 آلاف أسير سنة 1700م إلى 2000 أسير سنة 1738م، ليرتفع إلى 7000 أسير سنة 1750م، ثم ليتأرجح بين زيادة ونقصان حتى سنة 1830م حيث تتباين التقديرات بين 500 و122 أسير[3].

---

[1] شارلكان إمبراطور ألمانيا وملك إسبانيا، الابن الأكبر لفيليب أرشيدوق النمسا، ولد في "جنت" ببلجيكا يوم 24 فيفري1500م، سنة 1516م اعتلى عرش إسبانيا، خاض العديد من المعارك ضد فرنسا، ألحق تونس بعرشه وقاد حملة ضد الجزائر سنة 1541م وفقد جزءا من أسطوله فيها، تنازل لابنه فيليب عن حكم هولندا ثم إسبانيا في 15 جانفي 1556م، واستقال عن حكم ألمانيا، توفي في إسبانيا نتيجة لحمى حادة يوم 21 سبتمبر 1558م، انظر:
Paul Ackermann: dictionnaire biographique universel et pittoresque, t2, op.cit, p62.

[2] عائشة محمة: الأسرى الأوروبيون في مدينة الجزائر ودورهم في العلاقات بين الجزائر ودول الحوض الغربي للمتوسط خلال القرنين السادس والسابع عشر ميلادي، مذكرة ماجستير، إش عمار بن خروف، المركز الجامعي بغرداية، الجزائر، 2011–2012م، ص11–16.

[3] حنيفي هلايلي: القرصنة وشروط افتداء الأسرى الإسبان في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ع 4، 2003م، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، ص244.

ويورد "مُحَمَّد الأمين عطلي" أن أحد الأسرى البرتغاليين والمدعو "ماسكاريناس" (1621-1624م) قال أنه كان يوجد بالجزائر حوالي 800 أسير مسيحي ولولا الطاعون لكانوا أكثر، في حين يرى "المنور مروش" أن سنوات ازدهار أعداد الأسرى كانت من 1620 فما بعد، وعموما فقد بلغ عددهم سنة 1681م أكثر من 8000 أسير إنجليزي مرتفعا بعد سنة بسبب أسر 3000 بحار إنجليزي، أما الهولنديون فقد فاق عددهم 590 أسيرا ومابين 700 و800 أسير فرنسي في مدينة الجزائر وحدها[1].

في حين يقول "جون ب وولف" أن أي تقدير لأعداد الأرقاء أو الأحرار في شمال إفريقية في أحسن الأحوال مجرد تخمين، و يورد أن "بيير دان" قدر أن هناك حوالي 25 ألفا من الأرقاء الذكور وألفا من الإناث في الجزائر خلال العهد العثماني، ويعقب "وولف" أن رقم 25 ألفا يمكن أن يتفق عليه معظم ملاحظي نصف القرن 17م، ولكن هذا الرقم لم يشمل الرقيق في المدن الأخرى من الإيالة، وأنه مرتفع جدا بالنسبة لمدينة الجزائر وحدها، ومنخفض بالنسبة لعدد الأرقاء جميعا، وحسب ملاحظ موثوق فإن عدد الأرقاء المسيحيين الذين كانوا يباعون في أسواق مدينة الجزائر بين 1520-1660م تراوح مابين 500 و600 ألف ويبدو رقما عاليا، ولكن يحتمل بيع 400 ألف في هذه الفترة، وقد انخفض عددهم بشكل كبير في القرن 18م، ومع ذلك فمن المحتمل أن مابين 200 إلى 250 ألفا قد أسروا خلال هذا القرن، وأن معدل الرقم حوالي 3000 أسير في السنة خلال الفترة 1520-1660م وحوالي أقل من 2000 أسير خلال الفترة من 1660م إلى 1830م، وأن أكبر الجنسيات المتضررة كانت من الإسبان والإيطاليين أواخر القرن 17م، ما سبب أزمة ديموغرافية حيث فقدوا حوالي 300 ألف إلى 500 ألف أسير[2] .

6- خلفيات الأسرى في الجزائر العثمانية:

كان معظم الأسرى إيطاليين، إسبان، فرنسيين، إنجليز، هولنديين وسويديين، وأغلبهم رجال وبعض النساء والأطفال، ينتمون إلى طبقات اجتماعية مختلفة من نبلاء، عسكريين، رجال دين، تجار، بحارة، نجارين، بنائين، وأفراد متعددي المهن[3]، وقد كان معظمهم يتكلم كل اللغات الأوروبية، كما كان بعضهم من ألمانيا وروسيا والجزر البريطانية، منهم آلاف القرويين الذين أسروا أثناء الغارات ومئات من أهل المدن، فإذا وقعت سفينة في الأسر يتم إحصاء حمولتها ووضع قائمة بطاقمها ومسافريها وسؤالهم لمعرفة مكانتهم و مدى ثرائهم، مستندين إلى حديثهم ووجود كلكلة في أيديهم

[1] مُحَمَّد الأمين عطلي: المرجع السابق، ص100.

[2] جون ب وولف: الجزائر وأوروبا 1500-1830، ترجمة أبو القاسم سعد الله، ط خ، دار الرائد وعالم المعرفة، الجزائر، 2000م، ص206-208.

[3] Abla Gheziel: Captifs et captivité dans la régence d´Alger (XXVIIe- début XIXe siècle), Cahiers de la Méditerranée, N°87, 15/12/2013, Centre de la Méditerranée moderne et contemporaine, France, p2.

ومدى فصاحتهم ونبالة كلماتهم، وقد يتحاشى المسافرون إظهار مقامهم العالي لتفادي طلب الفدية الغالية، لكن كان البحارة يسألون الطاقم كما يستميل الأعلاج منهم الأسرى بلطافة للحصول على معلومات وفي أحيان يستعملون القوة وضرب الطاقم للحصول على المعلومات حول الأسرى[1].

المبحث الثاني: حياة الأسرى ومعاملتهم في الجزائر

1-وصول الأسرى إلى الجزائر:

عند وصول الأسرى إلى الميناء يقتادون إلى البادستان وهو نوع من أسواق العبيد أين يتم التقدير الأولي والمزاد الأولي على الأسرى، ويتم فيه تحديد وتنظيم الأسرى الذين يساوون مبلغ فدية كبيرا، وعند ضبط أسعارهم يقتادون إلى الداي الذي يختار البعض منهم ثم يأتي دور الأعيان في الاختيار، وباقي الأسرى يأخذون إلى سجون الإيالة من أجل مختلف الأعمال، أما الباقي فيباعون للأفراد من الطبقة العليا والأندلسيين بهدف الاستفادة من أموال افتدائهم[2].

2-أسعار الأسرى:

هناك تنوع كبير في أسعار العبيد الأوروبيين وتباين بين السنوات، حيث سنة 1656م تراوحت أسعارهم مابين 65 و 397 قرش إشبيلي، و مابين سنتي 1663 و1664م تراوحت الأسعار مابين 38 إلى 172 قرش إشبيلي ، في حين كانت بين 100 و255 قرش إشبيلي سنتي 1665-1666م، وفي سنتي 1696-1697م كانت مابين 101 إلى 324 قرش إشبيلي ، و تباينت سنتي 1699-1700م بين 110-496 قرش إشبيلي ، و قد كان تحديد سعر الأسير الأوروبي في القرن السابع عشر ينطلق من تقدير وضعه الاجتماعي الأصلي الذي ينتظر منه كسب وافتداء عال أم لا، كما أن هناك عوامل أخرى.

بتناقص أعداد الأسرى ابتعد الأهالي عن هذا النوع من المضاربة المالية والمتمثل في شراء الأسرى قصد الربح بقبض ثمن الافتداء، وأصبح الأسرى قضية حكومية، حيث تستعملهم الدولة في أشغالها العامة، وتستغل مشقة بعض الأعمال للضغط على الأسرى وأقاربهم ودولهم للإسراع في افتدائهم[3].

[1] جون ب وولف: المرجع السابق، ص208-210.

[2] Abla Gheziel: op.cit, p2.

[3] المنور مروش: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، ج1، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009، ص300-301.

3- عملية بيع الأسرى:

كان في الجزائر في العهد العثماني سوق مخصص لتجارة الأسرى المسيحيين، سمي "البادستان"أو "البابستان" أو البازستان، وهو ساحة مربعة تحيط بها أربع أروقة مغطاة يجتمع فيها الدلالون والزبائن والأسرى، تحيط بهذه الأروقة مجموعة من الدكاكين وعددها 36 دكانا، وكان لهذا السوق بابان أحدهما جنوبا على جهة سوق الرصايصية والآخر غربا على جهة سوق البشماقجية، يعود تاريخ إنشائه إلى ماقبل سنة 1573م إذ أسسه الباشا حسن فنزيانو[1] على أنقاض فندق صغير، وارتبط تأسيسه بنشاط الغزو البحري، فقد كان مخصصا لبيع كل غنائم الغزو البحري، حيث بعد حصول الرايس على غنيمة بحرية يقتادها نحو الميناء، ويتوجه نحو الداي لتقديم تقرير مفصل حول العملية، ثم بعد أن يختار الداي الأسرى الذين سيحتفظ بهم وغالبا عددهم 8 يتم بيع الباقي في سوق البادستان وهذا بعد عملية معاينتهم وتحديد طبقاتهم الاجتماعية، حيث تجري عملية البيع بعد الظهر بحضور الرياس وبعض الضباط لمعاينة أثمان البيع وهنا يبدأ الدلال أو السمسار باستعراض الأسرى محددا مزاياهم وأثمانهم، ويكون البيع بصيغة مزاد علني وتعتبر هذه العملية أولية لوجود عملية أخرى تتم بحضور الداي داخل قصر الحكومة أين يعرض الأسير ويقترح ثمنه النهائي بحضور المشترين حيث يباع للذي يدفع أعلى ثمن[2].

4-أصناف الأسرى:

أ- أسرى الداي: كان منهم 33 عبدا مسيحيا تحت أوامر رئيسي الطباخين وقد كانوا من مختلف الطوائف، ولا يسمح للعبيد المسيحيين الخروج من القصر سوى مرتين وذلك في اليوم التالي للأعياد المسيحية، وكانوا يستخدمون في المكاتب والمطبخ ومخازن القصر، وقد أشرف رؤساء الطباخين على جميع أنواع نشاطات العبيد المسيحيين، والذين ينقسمون إلى العبيد في جناح الداي الخاص وهم الأعلى مرتبة بين العبيد ومنهم رئيس الموظفين المسيحيين وأربعة عبيد آخرين وهم حرس الداي الشخصي ولا يمارسون عملا غيره، وفي الطابق الأول الذي يحتوي على جناح الخزندار يوجد 14 عبدا مسيحيا ينظفون ويحملون أطباق اللحم لمائدتي الداي والخزندار من المطبخ، بالإضافة لتنفيذ أوامرهما، و اثنان من هؤلاء مهمتهما الوحيدة هي تقديم القهوة للداي وزواره، ومستوى معيشتهما أفضل من غيرهما، من تعاطى الخمر من العبيد المسيحيين في القصر يتعرض للجلد والأعمال الشاقة مكبلا بالسلاسل لكن التدخين كان مسموحا في الحديقة أما

[1] حسن فنزيانو: من أصول إيطالية نشأ بمدينة البندقية، اسمه الحقيقي " أندريتا " أسره درغوث رايس في إحدى غزواته، فاعتنق الإسلام و لقبوه ب "حسن فنزيانو " ، بعد ذلك أخذه علج علي و جعله وكيلا له، تولى فنزيانو إمارة الجزائر مرتين الأولى سنة 1577 و عزل بسبب فرض ضرائب باهضة على السكان فثارو ضده، أما الإمارة الثانية فكانت سنة 1587، بعدها استدعاه السلطان لاسطنبول ليتولى منصب قبودان باشا. انظر فطيمة زيطوط: قاموس حكام الجزائر العثمانية في عهد البايلربايات 1518-1587، مذكرة ماستر، إش حسين مُحَمَّد الشريف، جامعة مُحَمَّد بوضياف ، المسيلة، 2018-2019، ص 50-51.

[2] عائشة محمة: المرجع السابق، ص16-19.

عمال الحديقة من العبيد ومنهم "كاثكارت" لا يتلقون سوى صحنا صغيرا من اللحم وصحن برغل وقدحين من اللبن الحامض في اليوم، وبين الحين والآخر يقدم لهم الزيت والخل والخبز الأسود، وبعض الفواكه، ومنعوا من فواكه الحديقة حيث يعاقب من يتناولها لأنها مخصصة للداي فقط، وقد كانوا تحت صلاحيات الخزندار و عوملوا بوقاحة حسب "كاثكارت"، وكان منهم عبدين مسيحيين ينظفان الجزء الأسفل من القصر وإضاءة الدرج للداي صباحا، ورفع أسرة جنود أبواب الخزينة وإطاعة رئيس الوزراء وحافظ مخازن القصر في كل ما يأمران، وقد صنفا ضمن الطباخين، كان العبيد الذين يعيشون في الجناح الأعلى من القصر يلبسون بذلتين أنيقتين من الجوخ الرفيع بحواشي من الذهب، وأما العبيد في الحديقة فيمنحون جوخا دون حواشي مذهبة، والعبيد المرسلين إلى الأعمال الشاقة يتلقون بدلة واحدة رديئة وغطاءين لواحد منهم فقط، وحسب "كاثكارت" أنهم (العبيد في القصر) تعرضوا للإهانات والفراغ والتعاسة[1].

ب– أسرى البايلك (الدولة): كان الداي يعين بعض الأسرى لخدمة الثكنات حيث كانوا يتلقون معاملة حسنة من قبل الجنود، والبقية يرسلون لسجون الأسرى، وكان الأسرى يلبسون حلقة حديدية في إحدى الرجلين لتمييزهم عن الآخرين، ويستثني الداي النجارين والحدادين ليؤجرهم لملاك السفن، في الصباح يوجه الأسرى للمعسكرات وسحب الأمتعة وتأدية الأعمال الشاقة في قصر الداي وكذا الأعمال العمومية كتحطيم الجدران وكسر الصخور وسحب عربات البناء وبعضهم يرسل للبحر، وكانوا يتعرضون للضرب بالسوط للعمل، كما يمكنهم الاشتغال في مناصب حسب مواهبهم في الزراعة والوظائف المنزلية وغيرها، وأصعب أعمال الأسرى كان التجديف في السفن، ومن الأسرى من يكتري حانة السجن عند امتلاك مال كاف مقابل مبالغ سنوية ضخمة تؤدى للداي، كما استغل الأسرى في تعزيز السواحل بالعمل في معامل الحجارة، ما أثر على حالتهم الصحية سلبا.

ج – أسرى الخواص: حيث كانوا يربون الأطفال ومختلف الأعمال المنزلية، قد وارتكزت وضعيتهم على طبيعة المالك فقد يعيشون حياة سعيدة وحرية وهناك من يعاملون بطريقة سيئة ويضربون عند الخطأ، أما الأسرى الرهبان أو المتدينون فلا يستخدمون بطريقة سيئة لأن الأب المسؤول عن المستشفى الإسباني يدفع هبات لاستثنائهم من ذلك بالإضافة إلى مساعدات التجار الفرنسيين، وقد عمل الأسرى كباعة مساعدين في المحلات ومنهم من سمح له بتسيير مشروعه الخاص شرط نسب معينة من الأرباح وقد عومل أصحاب المهن منهم بحسن خاصة منهم الجراحون[2].

[1] جيمس ليندر كاثكارت: مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب، تر تع تق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1982م، ص25-28.

[2] بلقاسم قرباش: المرجع السابق، ص226-230.

5-سجون الأسرى المسيحيين في الجزائر:

أ- سجون الداي: وصل عدد الأسرى بها في مدينة الجزائر 800 أسير، أغلبهم صقليون، حيث بالقرب من إحدى الكنائس يوجد سجن به حوالي 500 أسير مسيحي بحسب وثيقة مؤرخة في 10 ديسمبر 1763م، مقابل هذا توجد وثيقة كنسية مؤرخة في 22 فيفري 1790م أشارت إلى أن عددهم في هذه الفترة لم يتجاوز 39 أسيرا، كانت هذه السجون تسمى بانيو (Bagno)[1] وتعني الحمام، حيث أن الأسرى كانوا يودعون في الحمامات ليلا، إلا أن ارتفاع أعدادهم فرض على الحكومة الجزائرية آنذاك تخصيص مبان للأسرى حيث احتفظوا بنفس الاسم (بانيو).

كانت سجون مدينة الجزائر شبيهة بالمنازل السكنية، حيث تألفت من بهو داخلي يتوسط المبنى تحيط به أروقة مقسمة إلى غرف متفاوتة المساحة، حيث تأوي الغرفة الواحدة مابين 15 إلى 20 أسيرا، وهي خالية من الأثاث إلا حصائر من قصب أو حلفاء يستخدمها الأسرى أثناء نومهم، وتنقسم هذه السجون إلى قسمين:

- **سجون البايلك:** يعود تأسيسها إلى القرن 16م، وقد كان عددها بداية اثنان، السجن الكبير الذي كان يقع في شارع السوق الكبير بالقرب من باب عزون وسمي سجن الملك لأن مؤسسه كان خير الدين بربروس وكان به العديد من الأسرى نظرا لمساحته الكبيرة، حيث ذكر هايدو أنه كان يضم مابين 500 و2000 أسير وهذا أثناء فترة حكم حسن فينيزيانو.

يأتي بعده سجن الباستارد وهو أقل مساحة، مقسم إلى غرف ومخصص للأسرى المكلفين بالعمل في الأشغال العامة والمعروفين بعبيد المخزن باعتبارهم أملاكا للدولة، يضم السجن كنيسة يحيي فيها الأسرى المسيحيون صلوات وقداس الأحد ومناسباتهم وأعيادهم المختلفة، تردد على هذا السجن العديد من المبعوثين الكنسيين، ورجال الدين لتقديم الدعم الروحي، تراوح عدد الأسرى به مابين 400 و500 أسير، يتمتع أغلبهم بحرية الحركة. و بتزايد أعداد الأسرى أصبح من الضروري بناء سجون جديدة حيث بني سجن "سيدي حمودي" وسجن "الغاليرات" وسجن "علي بتشين" وسجن "الأسود" والمسمى "تبرئة البايلك" وسمي كذلك لاحتفاظ الداي ببعض الأسود في قسم منه[2].

[1] حسب بلقاسم قرباش أن البانيو من أهم الأدوات والشواهد لفهم حالة الأسرى الأوروبيين بالجزائر خلال العهد العثماني، بحيث تعطي تحليلا دقيقا لوضعيتهم (الأشغال، الطعام، اللباس، العقوبات). انظر بقاسم قرباش: بانياوات الأسرى المسيحيين في الجزائر خلال العهد العثماني (1519-1830م)، مجلة دراسات تاريخية، ع 1، ديسمبر 2013، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية، الجزائر، 2013م، ص131.

[2] إبراهيم سعيود: جهود الكنيسة البابوية في تحرير الأسرى الأوروبيين في الجزائر خلال العهد العثماني (مقاربة تاريخية)، مجلة الحوار المتوسطي، ع 15-16، مارس 2017م، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، ص420-421.

- **الحمامات:** كان الأسرى الأوروبيون يقيمون في الحمامات و الشبيهة غالبا بالمنازل بباب رئيسي ضيق وممر طويل أين تتوزع الغرف إلى جانب وجود حانة يقضي فيها الأسرى أوقات فراغهم، كما تتشكل من طابق علوي يحتوي على غرف يقيم فيها أسرى إلى جانب وجود شرفات تطل على الفناء الداخلي أين يوجد خزان الماء إضافة إلى غرفة صغيرة توضع فيها سلاسل الأسر.

أما عن الأسيرات الأوروبيات فقد كان عددهن قليلا، واحترمهن العثمانيون ولم يجبرن على اعتناق الإسلام فحسب الأب دان أن عدد اللاتي اعتنقن الإسلام سنة 1630م بلغ 1000 أو يزيد بقليل (1200)، وقد كان الأهالي يشترون الأسيرات للعمل في المنازل وكثير ما ينتهي الأمر بزواجهن بمالكيهن بعد إسلامهن، ومثال ذلك خير الدين بربروس الذي تزوج من الأسيرة ماريا كايتانو.

ب- بيوت الخواص: كان من الأسرى الأوروبيين من يقيم في بيت مالكه، كما تشير أغلب مراسلات المبعوثين الكنسيين المتوافدين على الجزائر طيلة القرنين 17 و18م[1].

6-أوضاع الأسرى في الجزائر خلال العهد العثماني:

أشارت المصادر الأوروبية للأسرى بمصطلح "العبيد" إلا أنهم في مدينة الجزائر وفي كل التراب العثماني اعتبروا غير المسلمين منهم بمثابة توتساكلر Tutsaclar بمعنى أسير حرب أو كوار Kullar بمعنى مخلوقات ملكية الإله، أكثر مما يعتبرون أسرى عبيدا، وهي عبارة دلت على السود الأفارقة الذين كان يبيعهم النخاسون في أسواق الشمال الإفريقي، ولقد كان الأسير مملوكا بمجرد بيعه يسجل في الخزينة تحت عنوان خاص به ثم يسلم لمالكه.

الأسرى الذين لا يختارهم الداي ليخدموا كحراس أو خدم ولا يشتريهم الباعة الأفراد يصبحون ملكية للدولة، فيستغلون في تشييد طرق الإيالة وفي دار الصناعة بالجزائر وورشة بناء السفن، ويسكنون حجرات خاصة تقع ضمن بنايات واسعة تشبه مهاجع الانكشاريين، وإذا كان لأحدهم تجارة خاصة يؤجر لتاجر أو صاحب دكان مقابل ثلث أرباحه، والنساء من طبقة النبلاء المقبوض عليهن بافتراض فديتهن يسكن في منزل تابع لشيخ البلدية بانتظار تدابير فديتهن، أما الأقل ثروة على قلتهن فيتم بيعهن في المزاد العلني إلى جانب الرجال، وقد انتشر في الجزائر ما يشبه المضاربة على الأسرى طمعا في الربح الكبير جدا[2].

[1] إبراهيم سعيود: المرجع السابق، ص 421-422.

[2] وليم سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص156-157.

عندما يباع العبد (الأسير) يصبح ملكية سيده بكل معنى الكلمة، ويعيش في مدينة الجزائر في ظروف أقل بؤسا مما يمكننا اعتقاده، إذ عند معظم المسلمين وبحكم الدين يفرض عليهم حسن المعاملة والعدالة مع العبيد والصبر عليهم، وبالتالي فقد استغلوا في التجديف لمدة خمسين يوما متجددة مرتين في السنة، وباقي الوقت يعملون في الفلاحة في البساتين المتاخمة للمدن، أو في أعمال التنظيف في منازل أسيادهم، أما بالنسبة للأسرى الذين يعرضون فدية أنفسهم بالمبلغ المطلوب فيتم إعفاؤهم من الأعمال و يعيشون كما يريدون، ويشترط عليهم الرجوع إلى منازل أسيادهم قبل غروب الشمس فقط، ويمكنهم حتى اقتراض الأموال من سادتهم ولكن مقابل فائدة عالية، في حالة التأخر في دفع الفدية يجبر السيد أسيره على بعض الأعمال اليدوية لإجبار أقربائه على مضاعفة أموال الفدية وأحيانا قد يصل الأمر إلى تهديد الأسير بالقوة ونادرا ما يتمادى إلى أكثر من ذلك، خوفا من فقدان الأسير لأهميته ووزنه عند مفتديه.

في بعض الأحيان وعند وقوع هجمات مسيحية على السواحل، قد يعمد السكان إلى عمليات انتقامية ومجازر[1] تطال الأسرى الأبرياء، لكن لم يكن للسادة أي علاقة بمجازر العبيد وإنما بالعكس فقد كانوا يبذلون قصارى جهدهم لحمايتهم من هذه الأحداث[2].

حسب وليام شالر فإن الأسرى اعتبروا عبيدا للإيالة وهذا بعد إلغاء قرصنة الأفراد في البحر، وقبل هذا كانت تحميهم السلطات دائما من الأذى وسوء معاملة الأهالي، وإنه لمن الإنصاف القول بأن حالتهم لم تكن أسوأ من أسرى الحرب الذين يقعون في أيدي البلدان المسيحية المتحضرة.

ويضيف شالر أن الأسيرات عوملن بالاحترام الذي يفرضه جنسهن، ولم تكن الأشغال المطلوبة من الرجال مفرطة المشقة، كما أن الأسرى الذين يجدون كفيلا ضامنا عدم هروبهم يسمح لهم بالخروج إلى حيث يريدون مقابل دفع 75 سنتيما في الشهر، و هناك من الأسرى من شغل المناصب العليا كاسبين ثروات طائلة منها، وعومل المشتغلون منهم في القصر أو الملحقون بالشخصيات الكبيرة في الدولة بأقصى درجات اللطف، وعموما فإن كل عبد نشيط يجد الوسيلة لكسب رزقه، لدرجة أن هناك منهم من يغادر الجزائر متحسرا وكثير منهم من يغادرها ثريا.

[1] يعلق دوغرامون على هذه المجازر قائلا: «ثم إن الجزائريين ليسوا السباقين لمثل هذه المجازر، و تاريخ كل الأزمان والبلدان يقدم لنا العديد من الأمثلة». انظر:
H-D de Grammont: Histoire d´Alger sous la domination Turque, Ernest Leroux Editeur, Paris, France, 1887, p133.

[2] H-D de Grammont: ibid, p132-133.

أحيانا يعاني العبيد من الاضطهاد وسوء معاملة حراسهم ولكن هذا قانون كوني عام حيث أن الأسير رجل جرد من وسائل الدفاع عن نفسه وحرم من الحماية، وحسب شالر فإن أشد أنواع البؤس التي يعاني منها العبيد المسيحيون في الجزائر هو برود وجبن حكومات بلدانهم إزاء حالتهم بحيث تحرمهم حتى من الأمل في الفدية يوما ما[1].

يتفق الطبيب الألماني وعالم النباتات ج أو هابنسترايت مع القنصل الأمريكي شالر فيما ذهب إليه أن الأسرى الأوروبيين في الجزائر عادة ما يحظون باحترام الأتراك، ويكونون في حماية إحدى الدول الأوروبية التي تكون في حالة سلم مع الجزائر، حيث ترعى البعثة الفرنسية رجلي دين من الرهبان (les pères) أحدهما يحمل لقب المبعوث الرسولي لتونس وطرابلس والجزائر(Vicaire Apostolique)، أما المستشفى الإسباني[2] فيسيره متصرف ويساعده أحد رجال الدين (الآباء) المنتمين لسلك رهبنة عتق الأسرى(Ordre de la Rédemption)، ويقوم بأعمال خير جمة لفائدة جميع الأسرى ويلحق به جراح وصيدلي يعالجان المرضى[3].

المبحث الثالث: افتداء الأسرى

افتداء الأسرى عموما من شأن المبشرين الدينيين: المرتزقة، الثالوثيون و اللازاريون من سانت فينست دو بول، لكن هذا لم يمنع نشاط باقي الوسطاء وغالبهم من المغاربة، الذين يعتبرون خبراء حقيقيين في افتداء الأسرى و ذلك لنشاطاتهم التجارية، حيث يعتبر اليهود تحديدا وسطاء ممتازين بسبب ارتباطاتهم الكثيرة في كل أوروبا، كما لعب السماسرة دورا كبيرا في افتداء الأسرى[4]. تحدد المرتبة الاجتماعية والثروة المحتملة وجنس الأسير وعمره مقدار الفدية المطلوبة، عموما يمكن لتحويل فردي تحرير الأسير بسرعة ولكن هذا يكلف غاليا، كما أن هذا خاص بالأسرى ميسوري الحال فقط.

كانت عمليات التحرير الجماعية متكررة خاصة مع بداية القرن التاسع عشر، وقد ناشد الرأي العام الدبلوماسية و الحكومات للتدخل، ما فرض المنافسة بين الأمم في ذلك، حيث كان هذا التدخل على حساب المؤسسات الخيرية المتخصصة كالترينيتاريين (الثالوثيين) والمركديين خاصة[5].

---

[1] وليام شالر: المصدر السابق، ص99-101.

[2] كان يقع في شارع باب عزون، ضم خلال القرن 18م خمسون سريرا رحب بكل الاسرى، كان تحت الادارة المباشرة للجزائريين، سنة 1815 كان المستشفى الوحيد في مدينة الجزائر، انظر بلقاسم قرباش: الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات 1671-1830 م، المرجع السابق، ص 206-207 .

[3] ج أو هابنسترايت: رحلة العالم الألماني ج أو هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1145هـ-1732م، تر وتق وتع ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2007م، ص34.

[4] Abla Gheziel: op.cit, p6.

[5] Daniel Panzac: Les esclaves et leur rançons chez les barbaresque (fin xviii-début xix siècle), Cahiers de la Méditerranée, N°65, 15/12/2002, Centre de la Méditerranée moderne et contemporaine, France, p12-13.

1-الطرق المتبعة لتحرير الأسرى:

أ- الافتداء الديني: تحملت الكنائس المسيحية مسؤولية كبيرة في التكفل بالأسرى المسيحيين بالجزائر وشمال إفريقيا ككل حيث كانت ترسل أعضاء من السلك الديني في شكل بعثات لهذا الغرض، وينتمي هؤلاء لطوائف وتنظيمات مسيحية مختلفة، ومن أهم الجمعيات النشطة في الجزائر خلال العهد العثماني نجد:

- تنظيم الثالوث المقدس وافتداء الأسرى(L'Ordre de la très sainte Trinite et de la rédemption des Captifs): أسس هذا التنظيم قد على يد القديسين جون دو ماتا وفليكس دو فالو في جانفي 1198م، وقد زال هذا التنظيم في سنة1815م.
- تنظيم سيدة الرحمة(L'ordre de dame de la merci):تأسس في 10 أوت 1218م من طرف القديس "بيير نولاسك Pierre Nolasque" و"ريمون دوبينافور Raymond de Pénafort" تحت رعاية ملك أرغونة "جاك الأول Jacque1" واعترف به رسميا البابا "غريغوار التاسع Grégoire 9" في 17جانفي 1235م، وقد كان تأسيسه مرتبطا برؤيا مشتركة بتجلي السيدة مريم لبيير نولاسك ورايمون دوبينافور وجاك الأول.
- التنظيم اللازاري (L'Ordre Lazariste): على عكس التنظيمين السابقين اللذين بدآ نشاطهما في إطار افتداء الأسرى المسيحيين منذ العصور الوسطى، فإن التنظيم اللازري تأسس حديثا خلال القرن 17 من طرف "فانسان دوبول Vincent de Paul" الذي كان يرسل قساوسة لازاريين للإقامة في شمال إفريقيا مع القناصل بصفتهم كهنة للقيام ببعض الالتزامات والمهام تجاه أسراهم، وكان أول المبعوثين اللازاريين للجزائر المحامي في البرلمان "جون بارو Jean Barreau " الذي قضى 15 سنة في الجزائر، واستمر إرسال المبعوثين اللازاريين للجزائر إلى غاية سنة 1827م، قاموا خلالها بالمهام الموكلة لهم[1].

ب- الافتداء من طرف عائلة الأسير: خاص بالأسرى الأثرياء فقط، لكنهم يخفون خلفيتهم مخافة أن تشترط فيهم فدية غالية والمترتبة عن مكانتهم، وقد تنتهج العائلات طرقا أقل رسمية، ومنها وساطة "جورج بيدرو كولاكو Jorge Pedro Collaco" القنصل العام للبرتغال في المغرب طالبا في رسالة للأوضا باشي "علي السفاح" ممثل باي وهران في تيطوان التدخل لدى باي وهران وداي الجزائر لإطلاق صراح عبيد محتجزين في هاتين المدينتين، حيث تتعهد عائلات هؤلاء بدفع القيمة اللازمة لتحريرهم عبر القنصل.

[1] حفيظة خشمون: مهام مفتدي الأسرى والتزاماتهم الاجتماعية في مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية، مذكرة ماجستير، إش كمال فيلالي، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2007/2006، ص 32- 43.

ج– افتداء الأسرى لأنفسهم: يكون عن طريق أعمالهم، حيث يبرم السيد عقدا مع العبيد الذين يطلبون ذلك، ومثال ذلك مجموعة من البرتغاليين الذين أمضوا مثل هذا العقد، وبعض المصادر تشير إلى أن هذه الاتفاقيات تبرم عموما من قبل الأسرى ذوي الوظائف الحساسة لمساعدتهم على ربح حريتهم، وقد قدر "فونتير دوبارادي " أنهم يغادرون في سنين قليلة، بالرغم من أن قيمة فديتهم تتضاعف لندرة العبيد التي لاحظها عند إقامته بمدينة الجزائر والراجعة للسلم المنعقد.

د–المعاهدات الثنائية: التي تبرمها الحكومات الأوروبية مع إيالة الجزائر، هذه المعاهدات لم يكن تجديدها بسيطا وغالبا ما تضم تبادل الأسرى أو افتداء، ولأن احتجاز الأسرى يكون على البر والبحر فقد كان آلية في يد الإيالة للضغط على الأمم الأوروبية لإبرام معاهدات أو لدفع ضريبة مقابل السلم، حيث سنة 1810م افتدت البرتغال 541 أسير ومبادلة 40 أسير برتغالي بـ 76 أسير جزائري.

هذا النوع من الافتداء لم يكن ممكنا إلا في حالة أن الأسرى يقيمون في الجزائر ولم يتم بيعهم خارجها، وقد كانت العملية أكثر صعوبة في القرن 19م، حيث كانت هناك حركية للعبيد المسيحيين داخل للإمبراطورية العثمانية، سواء كسلعة أو كهدايا للسلطان العثماني، ما لم يكن هؤلاء العبيد من شرق البحر الأبيض المتوسط، وربما كان هذا هو الحال بالنسبة للأسرى المسيحيين السبعين الذين قدمهم داي الجزائر مُحَمَّد للسلطان عبد الحميد سنة 1775م[1].

هـ–الهروب: وكان بسبب يأس الأسرى، حيث يهربون نحو السفن الراسية بالميناء، وحتى نحو المواقع الإسبانية على ساحل المغرب الإسلامي، وكان هذا الهروب لا يفرض على دولة الأسير دفع فديته وهذا بموجب البند 11 من المعاهدة الجزائرية الإنجليزية سنة 1862م، ومثل هذه البنود شجعت الأسرى على الفرار بتحفظ لأن الفشل يعني التعرض للقتل، ومن الأمثلة عن فرار الأسرى فرار وليام أوكلاي وأصدقائه سنة 1646م، حيث أن قارب فراره علق بالقرب من الكنيسة المركزية بمايوركة، كما استطاع أسير برتغالي الفرار نحو بارجة بريطانية كانت بالقرب من الساحل بعدما كان يشتغل في حديقة سيده خارج مدينة الجزائر[2].

و– التمرد: وقد كانت بعض المحاولات من قبل الأسرى قريبة من النجاح، ومنها ما فشلت في المهد كمحاولة ابن أمير بحر إسباني سنة 1531م حيث اكتشف نتيجة الخيانة، كما حدثت ثورات سنة 1559،1662، 1753 ثم 1763م أدت إلى كثير من إراقة الدماء والفوضى في المدينة، ولكن المدافعين (الانكشارية) استطاعوا قمعها ومعاقبة قادتها بغلظة

[1] Yacine Daddi Addoun: L'Abolition de l'esclavage en Algérie 1816-1871, thèse de doctorat, directeur de these Paul E Lovejoy, York University, Ontario, Canada, 2010, p80-83.

[2] بلقاسم قرباش: الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات 1671-1830، المرجع السابق، ص205-206.

حيث أدى عامل اختلاف المذاهب الدينية ولغات الأسرى وانعدام الثقة بينهم، و رضا البعض منهم بأوضاعهم في الجزائر إلى اقتناعهم بالأسر فلم يريدوا تعريض حياتهم للخطر و هو الأمر الذي لعب دورا كبيرا في إفشال هذه التمردات[1].

2-شروط افتداء الأسرى:

كان لابد من الحصول على وثيقة "الجواز" الرسمية التي بدونها قد يتعذر الوصول إلى البر الجزائري، والتي تحتوي شروط الفداء حيث نصت على:

- العملة التي يستقدمها الآباء تكون من فئة أربعة بستول (Pistole) وهي عملة ذهبية إسبانية.
- دفع رسم جمركي بقيمة 3٪ من أموال الفداء، كما يدفع الأسرى الذين يتم فداؤهم 40 قرشا مكسيكيا (Piastre) عند المغادرة و17 قرشا عند إزالة القيود.
- تؤدي السفينة التي تحمل الآباء والأسرى 40 قرشا مقابل الرسو.
- ثمن عبيد القصر 1000 قرش مكسيكي، عبيد المطبخ 500 قرش، الحرفيين والنجارين والحدادين 450 قرش، العاملون بالقوافل والبساتين 300 قرش، من ليست لهم مهنة 240 قرشا.
- يدفع الآباء القائمون بالفداء رسوما نقدية بمجرد تسديد الأثمنة لموظفي الممتلكات[2].

3-إجراءات افتداء الأسرى: بوصول المبعوث إلى مدينة الجزائر يعرف بنفسه إلى سلطات الميناء، مصرحا بالمبلغ المالي الذي يحمله، ثم يدفع 3.5٪ كرسم للميناء، ويقدم مبلغا مماثلا كشكر هدايا للداي وممثل الديوان، ثم يوفر له سكن ومترجم ويسمح له بإعلام كنيسته أو بعثته إذا كانت عاملة بالمدينة، ويجلب له الأسرى الذين جاء لافتدائهم من سكناتهم المختلفة، من طرف مالكيهم أو من المهجع، وفق ترتيب يعتمد على طول مدة إقامتهم حيث يؤتى بالأطول مدة أولا ويسمح للأسرى بالمساهمة بأي مدخرات قد جمعوها بهدف مبلغ الافتداء، أما قيمة الفدية فقد كان يحددها الداي يسلم الأسير للمبعوث ويعطى له معطف أبيض كرمز لتوبته، ثم يقود المبعوث كل الأسرى المفتدين إلى البلدية أين تصدر لهم شهادة الحرية لكل واحد منهم، حينئذ يأخذ المبعوث إذنا رسميا بالمغادرة من الداي ويقود موكبه الصغير إلى الميناء للصعود إلى السفينة أين تستخلص 10٪ إضافية على مجموع مبلغ الافتداء، قبل أن يسمح للأسرى بالمغادرة من مدينة الجزائر[3].

[1] جون ب وولف: المرجع السابق، ص223-224.

[2] حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص248.

[3] وليم سبنسر: المرجع السابق، ص158-159.

4-المهام السرية لمفتدي الأسرى في الجزائر: بالإضافة للرعاية الصحية والروحية التي كانت ترافق عمليات افتداء الأسرى المسيحيين من طرف قساوسة الفداء والتنظيمات الدينية المسيحية والوكلاء اليهود، إلا أن ذلك لم يخل من قيامهم بعدة مهام خفية تتمثل في:

أ- الدعاية: أسالت قضية الأسرى المسيحيين في الجزائر خلال العهد العثماني الكثير من الحبر في العالم الأوروبي حيث كانت الموضوع الرئيسي والسهل لأغلب الأعمال الأدبية الأوروبية والتي عرفت آنذاك بأدبيات الأسر والفداء وذلك من خلال النشاط الدعائي الذي كان يقوم به قساوسة الفداء حيث يستخلص من كتاباتهم وتقاريرهم آليات الدعم الدعائي والعدائي ضد الجزائر، وذلك عبر مجالات مختلفة كتصوير وتسويق صورة الحياة السوداء ومعاناة الأسرى والطعن في الرموز المقدسة والثابتة للمجتمع الجزائري والتركيز على أسباب اعتناق الأسرى المسيحيين للإسلام.

ب- الجوسسة: لعب الأسرى دورا كبيرا في عملية الجوسسة، حيث سمح لعدد كبير منهم التواجد في مراكز القوة بالجزائر وتدوين معلومات وتقارير مفصلة حولها، شجعت أغلبها غزو الجزائر في إطار الحرب السرية المعلنة ضد الجزائر منذ زمن بعيد معتمدة على الدسائس، كما أن الرهبان وقساوسة الفداء ونتيجة لتعاملهم مع مختلف فئات الحكام والمحكومين بالجزائر خلال العهد العثماني سمح لهم بتقصي الأوضاع و التعرف على نقاط الضعف والقوة داخل الإيالة كما درسوا المجتمع وأرسلوا تقارير مفصلة إلى بلدانهم الأصلية تثير الحقد المسيحي ضد مسلمي ضفة المتوسط الجنوبية، وبذلك كانوا بمثابة المنظرين للحملات الأوروبية ضد الجزائر.

ج- التبشير: حرية المعتقد التي كان يتمتع بها الأسرى المسيحيون وآباء وقساوسة الفداء في الجزائر، مكنت من إنشاء العديد من الكنائس داخل السجون ومنها كنيسة الثالوث المقدس في سجن الباشا، وقد وجد التبشير ومحاولات لنشر الديانة المسيحية حيث أكد الأستاذ "مولاي بلحميسي" بأن البعثات الدينية كانت تؤدي دور الحملات الصليبية بوسائل أخرى، وبالتالي فإن استمالة العنصر المسلم نحو الديانة المسيحية كان من خلال المؤسسات الاستشفائية المسيحية والصيدليات داخل السجون، حيث لم يقتصر العلاج فيها على المسيحيين فقط بل تعدى إلى للأتراك والمسلمين أيام الوباء والطاعون، وبالتالي نشطت هذه المؤسسات في العمل التبشيري ومنها المستشفى الإسباني سنة 1575م والذي أسسه الأب " كبيسان" [1].

إذن فقد عرفت الجزائر خلال العهد العثماني بروز ظاهرة الأسر و الأسرى بشكل كبير و كذلك ظهور عمليات افتداء الأسرى أيضا حيث أن أعدادا كبيرة من هؤلاء كانت تعيش في المجتمع الجزائري و تأثرت به بالغ التأثر ، و هو الأمر الذي دفع ببعض الأسرى إلى تجسيد فترة تواجدهم بهذا المجتمع من خلال كتاباتهم و مؤلفاتهم و هذا عندما يغادرون الجزائر بعد أن يتم افتداؤهم ومنهم من قام باستغلال فترة أسره لوضع مؤلفاته .

[1] بومدين دباب: المهام السرية لمفتدي الأسرى المسيحيين بالجزائر خلال العهد العثماني، مجلة آفاق فكرية، مج4، ع8، مارس 2018، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2018م، ص127-131.

الفصل الثاني

سيرفانتس أسير الجزائر

المبحث الأول: حياة سيرفانتس قبل الوقوع في الأسر

المبحث الثاني: مشاركته في معركة ليبانتو ووقوعه في الأسر

المبحث الثالث: محاولات الفرار وافتداء سيرفانتس

الفصل الثاني: سيرفانتس أسير الجزائر

انتشرت في الجزائر خلال العهد العثماني ظاهرة الأسر و الأسرى حيث جلب هؤلاء من كل صوب و حدب فتنوعت جنسياتهم إذ نجد من بينهم الفرنسيين و البرتغاليين و الإنجليز و حتى الإسبان كما اختلفت مكانتهم الاجتماعية فكان من بينهم عامة الناس و كذا النبلاء و الأبناء الحكام و الملوك و كذلك مراتبهم العلمية فكان من بينهم الأميون و المتعلمون و حتى العلماء و الأدباء، و لعل أبرز شخصية برعت في مجال الأدب و عاشت فترة أسر في إيالة الجزائر نجد الأديب الإسباني ميغيل دي سيرفانتس .

المبحث الأول: حياة سيرفانتس قبل الوقوع في الأسر

1-مولد سيرفانتس: وهنا ورد في كتاب "سرفانطيس أمير الأدب الإسباني" أن هناك خلافا بين المؤرخين حول مكان وتاريخ ميلاده ، حيث أسفرت أبحاثهم عن رأي يكاد يكون مؤكدا في كليهما، وهو أنه ولد في مدينة قلعة "هناريس" وقد نازعتها في هذا الحق سبع بلدات أخرى وهي: "اسكيفيا " بدعوى أن سيرفانتس نفسه وصف هذه البلدة بالشهيرة، و"إشبيلية" وهذا حسب الأديب الشهير "نقولا أنطونيو" ودليله أن اسمي سيرفانتس وسافيدرا من عائلات إشبيلية وأن سيرفانتس أبصر الروائي والممثل "لوبي دي رويدا" يمثل مسرحياته في إشبيلية، لكن هذه الحجة الواهية تبطل أمام الأدلة التي قدمها المؤرخون الحداث على أن "لوبي دي رويدا" إنما كان يتنقل في مدن "قشتالة" حينما كان سيرفانتس صبيا. كما نجد رأي آخر يرجع مسقط رأس سيرفانتس إلى بلدة "لوسينا" لكن لا سند له سوى أسطورة تناقلها أهلها تواترا لا برهان يؤيدها، ومن المدن التي زعم أنه ولد فيها "مدريد" بتأييد "لوبي دي فيغا ومعاصري سيرفانتس" الذي سماها بوطنه في منظومته الشعرية "رحلة البارناس" إلا أنها وردت مجازيا فقط. هناك من زعم كذلك أنه ولد في بلدة "كونسويغرا" ومدينة "طليطلة" دون حجج قوية، وأرجع فريق آخر مكان ميلاده إلى بلدة "الكاسار دي سان خوان" وقد بني على حجة قوية أبطلت في الربع الأخير من القرن 19م[1]، إذن كل هذه الآراء أبطلت وبالتالي فلا جدل أن "سيرفانتس" ولد في مدينة "قلعة هناريس"[2].

[1] نجيب أبو ملهم و موسى عبود: سرفانطيس أمير الأدب الإسباني، مطبعة المخزن، تيطوان، المغرب، 1947م، ص20-21.

[2] قلعة هناريس: تقع هذه المدينة على ضفة نهر "هناريس" على بعد 33 كيلومترا عن مدريد، وكانت مركزا ثقافيا أوروبيا لاحتوائها على جامعة شهيرة أسسها الكاردينال سيسنيروس سنة 1498م، والتي ظلت مركزا ثقافيا إلى غاية نقلها إلى مدريد سنة 1836م، انظر: نجيب أبو ملهم و موسى عبود: المرجع نفسه، ص 22.

ولد "ميغيل دي سيرفانتس سافيدرا" يوم 29 سبتمبر 1547م (التاريخ المرجح)، وعمد في التاسع من شهر أكتوبر من نفس السنة في كنيسة القديسة "مريم الكبرى" وهذا حسب سجل العمادات[1] المحفوظ في تلك الكنيسة والمؤكد بأنه ولد في مدينة القلعة، أما تحديد يوم ميلاده فقد استنتج من خلال العادة التي ألفها الإسبان بتسمية المولود باسم القديس الذي خصص له اليوم، حيث سمي ميغيل نسبة ليوم عيد القديس "ميغيل" أو "ميخائيل" والمصادف للتاسع والعشرين من سبتمبر كل سنة[2].

2- عائلة سيرفانتس: لقد كان والده طبيبا غير مرخص، ثقيل السمع قليل المال كثير التنقل من منطقة لأخرى بغرض جبر العظام و تطبيب الإصابات الخفيفة[3]، وقد كان اسم والده "دون رودريغو" وأمه "ليونور كورتيناس" ولسيرفانتس 6 إخوة منهم "رودريغو" المولود سنة 1550م وأختاه "أندريا"و"لويزا" المولودتين سنة 1544م و 1546م على التوالي[4]، يمكن تتبع نسب "ميغيل دي سيرفانتس سافيدرا" إلى غاية القرن 11م، ينحدر من عائلة أشراف كانت موالية للملك "سان فيرناندو" حين غزا إشبيلية، كان جده عمدة مدينة ألكالا ثم قاضيا ثم رئيس محكمة "غوادالاخارا" ، وقد تزوجت إحدى عماته من ابن دوق ملكي، لم يتول والده أي وظيفة حكومية، حيث عاش متواضعا في ألكالا[5]. و عائلة "سافيدرا" من سكان جبال الشمال، الذين حاربوا ودافعوا عن الأرض المسيحية ضد "الموريسكيين"[6] لمدة 500 سنة، أصلهم من غاليسيا في قشتالة[7] بالأندلس، عرفوا بالوفاء للملوك حيث اكتسبوا شعار النبالة والانتصار في كل إسبانيا، وبعد كل هذا غادر البعض منهم إلى العالم الجديد، وبقي الآخرون في شبه الجزيرة[8].

---

[1] العمادات: من المعمودية وهي التي تجعل من الإنسان مسيحيا، بواسطة تعميده بالماء الذي جرت عليه الصلاة باستدعاء الروح القدس عليه ليصير ماء مقدسا، وتعتبر المعمودية من أسرار الكنيسة التي حددتها الكنيسة الكاثوليكية بسبعة، وتجري المعمودية في الكنيسة الأرثوذكسية بتغطيس المعمد ثلاثا في الماء على اسم الأب والابن والروح القدس، وتجريها الكنائس الأخرى بواسطة صب الماء على جبهة الرأس، وبالنسبة لعمر التعميد فتقوم الكنائس البروتستانتية بتعميد البالغين فيما تقوم الكنيستان الكاثوليكية والأرثوذكسية بتعميد الأطفال مع وجود عرابين لهم يكفلون تنشئتهم الكنسية والروحية. انظر: أحمد راتب عرموش وآخرون: المرجع السابق ص456.

[2] نجيب أبو ملهم و موسى عبود: المرجع السابق، ص20-23.

[3] ول وايريل ديورانت: قصة الحضارة، تر فؤاد أندراوس وآخرون، مر علي أدهم، ج2، م7، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم-تونس-ودار الجيل-بيروت-، 1992م، ص116.

[4] نجيب أبو ملهم و موسى عبود: المرجع السابق، ص24.

[5] C.B Dumaine: Essai sur la vie et les œuvres de Cervantes, Alphonse Lemerre éditeur, Paris, France, 1896, p16.

[6] الموريسكيين: مصطلح يطلق على من بقي من مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة 1492م، وسماهم بعض المؤرخين بالأندلسيين المواركة، انظر: مُحَّد السعيد بوبكر المرجع السابق، ص60.

[7] قشتالة: مملكة إسبانية من القرن الخامس عشر، تقع في الجهة الغربية لإسبانيا باتجاه المحيط الأطلسي، كانت في صراع مع المسلمين، انظر: مُحَّد خير فارس: تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، ط1، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، 1969م، ص14.

[8] Emile Chasles: Michel De Cervantes, libraire académique, Paris, France, 1866, p19-20.

3-نشأته: لم يكن والده موفقا في مهنته، وقد عاشت عائلته في فقر، وقد عاش في هذا الجو العائلي حتى قارب الخامسة عشرة من عمره، حيث تردد في هذه الفترة على مدارس القلعة أين تعلم العلوم الابتدائية وشيئا من الأدب واللغة اللاتينية وقد كان من المتفوقين في الدراسة متقد الذهن قوي الإدراك دقيق الملاحظة قوي الميل إلى الشعر والمسرح. انتقلت عائلة "سيرفانتس" إلى مدينة "إشبيلية" في ربيع سنة 1563م، بغية تحسين أوضاعها المادية، وهذا لمكانة المدينة الاقتصادية آنذاك، ورغم أن أوضاع عائلته لم تتحسن إلا أن والده لم يعزف عن إرساله إلى خير مدارس إشبيلية، حيث تلقى بعض الدروس العليا في المدرسة التي فتحها الآباء اليسوعيون[1] سنة 1554 بالمدينة، وقد تأثر بأساتذتها حيث ذكرهم بعد ذلك في روايته (محاورة الكلاب) بالمدح والثناء، وقد تعرف "ميغيل" في هذه المدرسة على بعض فتيان النخبة ويرجح أنه تعرف على "ماتيو فاسكيس" كاتم أسرار الملك فيليب الثاني فيما بعد، كما شاهد في المدينة تمثيل روايات المؤلف الإسباني الشهير "لوبي دي رويدا"، ويقال أنها سبب في ميله إلى الفن المسرحي، كما أبصر الحياة على حقيقتها.

بسبب عدم تحسن أوضاع العائلة في إشبيلية انتقلت إلى مدريد، التي كانت تزخر بحياة اقتصادية وأدبية مزدهرة، وقد كان عمر ميغيل آنذاك 20 سنة، حضر دروس نحو و تأثر بأستاذه "لوبي دي أويوس" والذي سماه التلميذ العزيز الحبيب، بالرغم من هذا كانت ثقافة سيرفانتس ناقصة بسبب حياته دائمة الترحال وعدم استقراره الداخلي، إلا أنه اتصل بطائفة من الشعراء الذين سيتألقون في الأدب والشعر.

بوفاة الملكة "إيليزابيل دي فالوا"، كلف الكاردينال[2] "دون دييغو دي اسبينوثا" -رئيس المجلس الملكي- أستاذ سيرفانتس بكتابة سيرة مرضها ووفاتها، حيث أدرج الأستاذ مرثية من نظم تلميذه سيرفانتس والتي لاقت نجاحا كبيرا[3]، وقد علقت هذه الأبيات في الكنيسة تحت أشكال وشعارات الزينة، حيث ظهر تميزه واستحق الشاب هذا الاختيار.[4]

اهتم سيرفانتس بالمسرح منذ صغره، حيث أظهر ذوقا راسخا فيه، وتزامن مع الفترة التي كان فيها الممثلون المتنقلون يؤدون مسرحيات، وقد نقل "جون بابلون" قول سيرفانتس كتابه "الكوميديا" « أذكر مشاهدة "لوب دو رويدا" الكبير...للشعر الرعوي وقد كان رائعا، في تلك المرحلة لم يكن أي شخص أفضل منه لا من معاصريه ولا من سابقيه

[1] الآباء اليسوعيون: أعضاء في جمعية يسوع، وهي مؤسسة رهبانية أسست سنة 1534م من قبل أغناطيوس دو لويولا، وصادق عليها البابا بولس الثالث سنة 1540م، هدفهم تجديد الكنيسة من الداخل عن طريق التوجيه الروحي والتعليم والرسالة، فهذه الجمعية جمعية رسولية تحت سلطة قداسة البابا ويرأسها أب عام منتخب، يعتبر اليسوعيون ذوو تأثير ونجاح كبير ما أثار الحساد وأدى لحل تنظيمهم سنة 1773م من قبل البابا كليمونص 14، لكن سمح لهم البابا بيوس السابع بممارسة نشاطهم ابتداء من سنة 1814م، انتشروا في أقطار الأرض كلها، وأسسوا المدارس والجامعات ودور الثقافة. انظر: أحمد راتب عرموش وآخرون: المرجع السابق ص 501.

[2] الكاردينال: هو المساعد الأول للبابا، والبابا هو من يختار مساعديه ويعينهم في مناصبهم، ثم ترقى الكرادلة فأوكلت لهم مهمة إدارة الكنيسة الكاثوليكية في العالم، وفي الفاتيكان حاليا يترأس كاردينال كل لجنة أو مجمع. انظر: أحمد راتب عرموش وآخرون: المرجع نفسه، ص411.

[3] نجيب أبو ملهم و موسى عبود: المرجع السابق، ص24-31.

[4] C.B Dumaine: op.cit, p20.

وعلى الرغم من أنني كنت صغيرا جدا ولا يمكنني الحكم السليم على قيمة هذه الأبيات ، ومن خلال حفظي البعض منها في ذاكرتي واعتبارها السبب في مرتبتي الحالية، مازلت أجد رأيي ذاك صحيحا»[1]،لقد أظهر ميغيل دي سيرفانتس ولبقية حياته إرادة وحزما كبيرين، حيث كان مسيطرا ولم يترك آثاره تتبدد[2].

4-مظهره وشخصيته: كان وجهه حادا قليلا، شعره بني محمر وجبهته بارزة، ذو عينان متوهجتان، أنفه ملتو لكن متناسق، لحيته بيضاء وشاربه سميك، وفمه صغير ذو أسنان منفصلة عن بعضها، وقامته فقد كانت متوسطة وأكتافه عالية، أما عن شخصيته فقد كان شجاعا، مفتخرا بمجده العسكري، يطمح إلى الشهرة الأدبية، مفتخرا بمشاركته في المعارك، يشعر بالفخر كونه كان جنديا أكثر من كونه أديب، كما اتسم بالعبقرية[3].

5-مغادرة سيرفانتس إسبانيا: حسب وثيقة في أرشيف "سيمانـاس" فقد صدر أمر بالاعتقال نتيجة حكم قضائي ضد "ميغيل دي سيرفانتس" بالنفي لمدة 10 سنوات أو قطع يده، وهذا ليس لأنه قتل شخصا لكن لأنه حمل سيفا في مكان يسكنه الملك وأصاب غزالا، ما اعتبر جريمة و إهانة للملك[4].

6-سيرفانتس في إيطاليا: بين سنوات 1564-1570م انضم سيرفانتاس إلى سرية عسكرية، ثم أصبح حاجب الكاردينال "أكوافيفا Aquaviva" مندوب البابا "بيوس الخامس" عند "فيليب الثاني"، انطلق إلى إيطاليا، وقد أثرت حياة البحر على مخيلته، وهذا ما يظهر في وصفه البحارة في روايته "دون كيشوت"، بعد هذا أصبح سيرفانتاس جنديا في الأفواج العسكرية الإيطالية، وقد انتشرت أصداء مغامراته العسكرية في كل إيطاليا: نابولي، مسينا، لوريت، وغيرها من المدن، وفي نفس الوقت أكمل دراسته الأدبية وقرأ لكتاب قدماء "كهيليودور" كما قرأ لكتاب إيطاليين معاصرين له ومنهم "بيرناردين تيليسيو دي كوسينزا".

سنة 1570م هاجم السلطان "سليم"[5] جزيرة قبرص ونيقوسيا،و قد كان سيرفانتس ضمن سرية القائد "دييغو دو أوربينا" في جيش "ميغيل دو مونكادا"، وقد قضى صيف 1570م في نابولي، يلاحظ الطرق والمجد الإيطالي كما

[1] Jean Babelon: Cervantès notice sur sa vie et son œuvre, maison Charavay, Paris, France, 1947, p3.

[2] C.B Dumaine: op.cit, p18.

[3] M. Auger: Mélanges philosophique et littéraire, t2, Ladvocat libraire, Paris, France, 1828, p402-403.

[4] Lucien Biart: Cervantès, Lecène Oudin et Cie éditeurs, Paris, France, 1890, p11.

[5] سليم الثاني 1525-1574م: هو السلطان الحادي عشر من سلاطين الدولة العثمانية، ابن سليمان الأول-القانوني- ولد باسطنبول وخلف والده في الحكم سنة 1566م، تميز عهده بالإصلاح الداخلي وتنظيم شؤون الدولة كما تمكن من إخماد ثورة الانكشاريين. انظر: عائشة جميل: الجزائر و الباب العالي من خلال الارشيف العثماني 1520-1830م، اطروحة دكتوراه، اش صحراوي عبد القادر، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2017-2018 ، ص170.

قضى بعضا من الوقت في مدينة "لوك" والتي قال عنها« أن الإسبان يستقبلون ويحترمون جيدا فيها» وهذا في كتابه "رحلة إلى بارناسوس"[1] .

لم يخدم سيرفانتس الكاردينال أكوافيفا لمدة طويلة، نظرا لشخصيته الإسبانية المتكبرة خاصة وأن تلك الفترة كانت مليئة بالانجذاب إلى المغامرات والمجد العسكري، ومهما كان الدافع فقد ترك سيرفانتس روما، حيث سنة 1571م أسس البابا وفيليب الثاني وجمهورية البندقية تحالفا يسمى "الاتحاد المقدس" مشكلين أسطولا بقيادة الدون خوان النمساوي ابن تشارلز الخامس، وكان هذا ضد الدولة العثمانية، انضم سيرفانتس وهو في عمر 23 سنة إلى هذا التحالف طواعية كجندي في القوات الإسبانية المتواجدة بقوة في إيطاليا، وقد بقي فيها إلى غاية تسريحه المشرف سنة 1575م، حيث حظي في أربع سنوات بأقوى دروس الحياة، و شارك في معركة ليبانتو سنة 1571م[2].

[1] Jean Babelon: op.cit, p3-5.

[2] G Ticknor: Histoire de la Littérature Espagnole, tr JG Magnabal, Hachette et Cie libraires éditeur, Paris, France, 1870, p142.

المبحث الثاني: مشاركته في معركة ليبانتو ووقوعه في الأسر:

1-معركة ليبانتو: كان الأسطول المسيحي قد غادر مضيق "مسينا" في 16 سبتمبر 1571م، وتوزع كالتالي: البنادقة على الميسرة بقيادة "أغوستينو باربارِيغو Agostino Barbarigo" بأسطول يتكون من 53 سفينة، وعلى الميمنة كان "أندريا دوريا" على رأس 56 سفينة، وقاد "الدون خوان النمساوي"[1] قلب الأسطول المتكون من 62 سفينة، استطاع "قره علي" التسلل إلى وسط الأسطول المسيحي والقبض على 4 أشخاص انتزعت منهم المعلومات حول تعداد وسبب تحرك الأسطول إلى تلك المنطقة، بلغ الأسطول المسيحي رأس كولون بجنوب إيطاليا يوم 20 سبتمبر ثم جزيرة كورفو بعد 6 أيام ثم تقدم نحو خليج باتراس عند مدخل خليج ليبانت، أين تجمعت السفن العثمانية والتي بلغت نحو 300 سفينة على متنها 25 ألف رجل من مختلف مناطق الإمبراطورية، وقد قاد علي باشا قلب الأسطول، و على الميمنة كان مُحَمَّد شولوك باي الإسكندرية، وقاد "علج علي"[2] الميسرة، وبعد اجتماع المجلس الحربي الإسلامي الأعلى الذي ضم علي باشا وعلج علي وجعفر باشا وحسن باشا بن خير الدين، ورغم الخلاف حول خطة الهجوم ووقته تقرر الخروج للعدو، وانطلقت المعركة في 7أكتوبر 1571م في الخليج الواقع بين باتراس وليبانتي، حيث وبعد 3 ساعات انهزم جيش الميمنة في الأسطول العثماني ووسطه، والذي كان يجابه على التوالي ميسرة الأسطول المسيحي وقلبه، حيث قضي على مُحَمَّد شولوك قائد الميمنة وعلي باشا القائد العام للأسطول، وتحولت المعركة إلى مجابهة سفينة ضد سفينة، في حين كان علج علي على رأس الميسرة يبلي بلاء حسنا حيث سيطر على سفينة القيادة المالطية، وبعد انتصاره التام في هذه الجبهة تحول نحو قلب المعركة بحذر وقاد الأسطول إلا أنه حوصر فانسحب إلى جزيرة سانتا مورا ومعه 60 سفينة حيث أعاد تجميع الأسطول وتوجه إلى اسطنبول، لقد كانت الخسائر العثمانية ضخمة فقد قتل الآلاف من الجنود وأسر الكثير وأخذت 130 سفينة ودمرت 94 وغنم 300 مدفع، أما عن الجانب المسيحي فقد قتل 8 آلاف وجرح 10 آلاف جندي وحرر 12 ألف أسير مسيحي ودمرت 190 سفينة[3].

---

[1] خوان النمساوي أمير إسباني ولد سنة 1545م، وهو ابن شارل الخامس، انضم للجيش وقضى على ثورة الموريسكيين بالأندلس (1568-1570م)، عين قائدا للاتحاد المقدس من طرف البابا بيوس الخامس، دمر الأسطول العثماني في معركة ليبانتو، سيطر على تونس وبنزرت سنة 1574م، ثم شغل منصب الملازم العام في نابولي، تفاوض سرا مع روما للهجوم على إنجلترا، ثم عين حاكما على هولندا سنة 1576م، وتوفي مسموما سنة 1578م، انظر:
https://www.larousse.fr/encyclopedie/personnage/don_Juan_dAutriche/126203

[2] علج علي ولد حوالي 1500 م نشأ بجنوب ايطاليا بنواحي كالبر، اسمه الحقيقي " لوكافليني" و لقب بالفرطاس نتيجة لمرض أصابه، كان يعمل كصياد و كان يرغب في أن يصبح راهبا إلا انه وقع عام 1524 في الأسر و استمر ذلك إلى غاية سنة 1528 أين اعتنق الإسلام و اختار اسما جديدا له و أصبح يدعى " العلج علي"، و في عام 1568 عينه السلطان العثماني بايلرباي إفريقيا، و في عام 1571 أسندت إليه قيادة الأسطول العثماني برتبة قبودان باشا، انظر فطيمة زيطوط: الرجع السابق، ص 43.

[3] عبد القادر فكاير: دور الأسطول الجزائري في معركة ليبانتو 1571، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، ع 9، ديسمبر 2014م، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر ، لجزائر، ص417-419.

2-مشاركة سيرفانتس في معركة ليبانتو: كان سيرفانتس على ظهر السفينة "لاماركيزا"، وقد تعرض لثلاث ضربات بندقية، اثنتين على صدره وواحدة على يده اليسرى، وقد أصبح يلقب "بطريق ليبانتي"[1]، و تجدر الإشارة إلى أن سيرفانتس في هذه المعركة كان يعاني من الحمى، ورغم تعبه حارب معارضا زملاءه الذين حاولوا منعه من ذلك، طالبا من قائد السفينة عدم حرمانه من شرف المشاركة وأن يضعه في المنصب الأخطر، وقد قبل القبطان ذلك حيث طلب منه مساعدتهم في التسليح.

لاحظ القبطان إرادة سيرفانتس الكبيرة، فعينه على رأس 12 رجلا، وقد كانت "لاماركيزا" على ميمنة الأسطول تحت قيادة "دوريا"، إذا فقد كان سيرفانتس على يسار أعدائه بقيادة "علج علي"[2] ، لعبت السفينة دورا كبيرا في المعركة حيث هاجمت بشجاعة سفينة الإسكندرية رغم أنها أقوى منها، وأرغمتها على إنزال رايتها، وكان سيرفانتس متعبا مريضا إلا أنه لم يتخل عن المعركة، إذ أن الضربة التي تلقاها في يده تسببت في شللها لباقي حياته، إلا أن مشاركته في هذه المعركة محط فخر كبير بالنسبة له.

نزل سيرفانتس في مسينا، وعولج فيها لمدة 7أشهر[3]، حيث بعد أن شفي تماما انضم إلى سرية عسكرية أخرى وشارك في حملة الدون خوان النمساوي على تونس، وإعادتها تحت سيطرة إسبانيا[4]، حيث انطلقت الحملة يوم 27 سبتمبر 1573م، وقد كان سيرفانتس في كتيبة النخبة بقيادة "لوب دو فيقوروا" ، حيث تمكنوا من السيطرة على تونس وإعادة تنظيم الحكم فيها تحت سلطة الملك "مولاي حامت" الذي أعلن خضوعه لإسبانيا.

أظهر سيرفانتس إصرارا وشجاعة كبيرة في هذه الحملة، ثم قضى صيف 1574م في سردينيا في انتظار العودة إلى السواحل الإفريقية في الربيع، إلا أن الملك فيليب الثاني أهمل الحرب ضد المسلمين وتفرغ للحرب ضد المتمردين في بلاده حيث استعاد الأتراك تونس، وقد عبر سيرفانتس عن هذا بحزن كبير في مؤلفاته، وفي سنة 1575م تحصل الأخوان سيرفانتس على عطلتهما، وقد تلقى ميغيل رسائل توصية من الدون خوان النمساوي و دوق سيسا كاعتراف لدوره الكبير في خدمة بلاده، وهكذا وبعد 8 سنوات من المجد انطلق سيرفانتس نحو وطنه يوم 23 سبتمبر 1575م، رفقة أخيه رودريغو وبعض من رفقاء الحرب على متن السفينة "الشمس"[5].

---

[1] Jean Babelon: op.cit, p5.

[2] C.B Dumaine: op.cit, p39-41.

[3] حسب "كات إدوارد Cat Edouard" فإن سيرفانتس لم ينقل مباشرة إلى مسينا، وكان ذلك بعد أيام حيث ثم بقي في المستشفى بمسينا لمدة 5أشهر من 31أكتوبر 1571م إلى أفريل 1572م، و كان يقضي أيام نقاهته في التحدث مع أصدقائه المصابين حول المجد والحظ. انظر:

Edouard Cat: :Miguel Cervantes, Libraire Gédalge, Paris, France, sd, p43.

[4] Lucien Biart: op.cit, p13.

[5] Edouard Cat: op.cit, p45-47.

3-وقوعه في الأسر: في سبتمبر 1575م، أسر سيرفانتس بالقرب من السواحل الفرنسية، وهذا بعد انطلاقه من إيطاليا باتجاه إسبانيا، أسره بحارة «جزائريون»، وحقيقة كانوا من أسياد الجزائر الأتراك، حيث اعترضوا طريق السفينة المسماة "الشمس" والتي كان على ظهرها سيرفانتس، إذ جرد من كل شيء، وقد كان محاربا مصابا لا يستطيع الدفاع عن نفسه لولا أنه يحمل شهادات توصية لملك إسبانيا فيليب الثاني ممضاة من قبل نائب رئيس صقلية و "الدون خوان النمساوي" حاكم "سيسا Sessa " ما جعل آسريه يعتقدون أنه شخصية إسبانية مهمة ما يعني فدية قيمة، وقد كان هذا سببا في تحديد قيمة فديته بـ1000 دوقة ذهبية، و وضعه في مكان آمن وتكبيله بالأغلال والسلاسل من قبل سيده[1].

قضى سيرفانتس خمس سنوات في الجزائر وكانت أكثر كارثية وإثارة من السنوات التي مضت، وقد خدم فيها ثلاث سادة على التوالي، يوناني وبندقي وهما من الذين اعتنقوا الإسلام وحاكم الجزائر[2]، الأولان عاملاه بازدراء لأنه مسيحي وهذا ما تميز به المرتدون عن المسيحية، أما حاكم الجزائر فقد عامله بخشونة أكثر وهذا لأن سيرفانتس كان كثير محاولة الهرب وتحرير رفقائه من الأسرى[3].

كان لسيرفانتس امتياز أن يكون أسير الحاكم، وكذا من سجناء الفدية حيث استثني من الأعمال الشاقة، وغالبا ما يكون في السجن في حين باقي السجناء كانوا في الخدمة خارجا، ما ترك له الوقت للتخطيط للهرب وكذا بناء صداقات مع النساء اللاتي يعشن في المنطقة المجاورة لمكان احتجازه، ومنهم ابنة التاجر الغني الأغا موراتو "زهراء " والتي ستكون ذريعة هربه، حيث نظم محاولة هرب معها مقابل أن يتزوجها عند وصولهما إلى أرض مسيحية، لكن والدها حال دون ذلك[4].

---

[1] Fayçal Bensaadi: Cervantès Captif à Alger, Synergies Algérie, n°1, 2007, éd Gerflint, France, p121.

[2] اشترى حسن باشا سيرفانتس من مالكه، تجنبا لهربه واضعا إياه تحت الرقابة في السجن لمدة طويلة، إلى غاية تحصيله لمبلغ 100 إيقوص لتحريره، وفي هذا الظرف فقد ساعد القس "فراي جون جيل" من تنظيم الثالوث المقدس بالجزائر سيرفانتس كثيرا، انظر:

Frey Diego de Haëdo: de la captivité a Alger, tr Moliner-Violle, typographie Adolphe Jourdan, Alger, Algérie, 1977,p342.

[3] G Ticknor: op.cit, p144.

[4] Fayçal Bensaadi: op.cit, p124.

4-مغيل دي سيرفانتس في الأسر:

لقد أمضى سيرفانتس أيامه في الأسر مخصصا وقتا لكتابة أعمال أدبية كما كان يخطط كذلك للهرب وقد جسد هذا في العديد من المرات. فبعد أشهر قليلة من تعرضه و أخيه للأسر ، أعلم والده بذلك ما جعله يسعى عند الملك في سبيل تحريرهما، لكن وللعدد الكبير من الأسرى آنذاك تعذر ذلك، ما أدى بآباء كل الأسرى إلى السعي الفردي في سبيل تحرير أبنائهم، وقد كان والد سيرفانتس منهم، إلا أن مساعيه الفردية أسفرت عن تحرير ابنه رودريغو فقط، لأن سيرفانتس كان أسيرا قيما وكانت فديته عالية بحكم الوثائق التي وجدت عنده.كما لم يشعر سيرفانتس بالحقد فقط اتجاه آسريه بل تفاجأ كذلك بشجاعة البحارة والقادة والجنود الجزائريين واعتبر أنهم ليسوا بقراصنة وهذا في روايته "برسليس"، كما وصفهم بالعادلين وقد ظهر ذلك في رواية "دون كيشوت".

اتصف سيرفاتس بالعناد أثناء فترة أسره بالجزائر، حيث قال في روايته دون كيشوت عن حاله هذه: «لا يستطيع أي سالب تجريدي من السعي والشجاعة»، ولم تكن قراراته تناقش بل تطبق، وقد التف حوله رفقاؤه السجناء معتبرين إياه قطبا جاذبا (شخصية قيادية)، كما أظهر في العديد من أعماله أنه قد عرف نساء مسلمات، ولم يفهم سبب عدم افتدائه من قبل صديقه المقرب (أخيه غير الشقيق) رابح معركة ليبانتي الملك "فيليب الثاني"، خاصة وأنه قد لعب دورا كبيرا في هذه المعركة وقدم كل خدماته في سبيلها كما كان صديق للدون خوان النمساوي، حيث تحسر سيرفانتس لعدم دفع الملك بضع آلاف من الدوقيات في سبيل تحريره.

لقد كان سيرفانتس في فترة أسره يعيش في عالمه الخاص المتصور، ولم يتقبل الحقيقة كما هي، وكان دائم التخطيط للهرب ساعيا للحرية، حيث طلب من أحد أصدقاء طفولته وهو "ماتيو فاسكاس" إيصال رسالة للملك حاول فيها شرح أوضاع الآلاف من السجناء المسيحيين في الجزائر، مستعطفا إياه بأحوالهم المزرية و الإهانات التي يتعرضون لها، وأنه يجب إنقاذهم وتحريرهم، مقترحا إرسال حملة عسكرية إسبانية ضد الجزائر واستثمار العدد الهائل من السجناء لدعمه، لكن السلطة لم تنفذها باعتبارها فكرة غريبة فكاهية، حيث كان الحاكم بيروقراطيا معقدا جاهل بالواقع[1].

[1] Raymond Recouly: le chasseur de nuées ou la vie de Cervantès, les éditions de France, Paris, France, 1938, p86-92.

المبحث الثالث: محاولات الفرار و افتداء سيرفانتس:

1- محاولات الهروب: بعد فقدان سيرفانتس الأمل من أن يتم تحريره من قبل الآخرين عمد إلى محاولة تحرير نفسه عن طريق محاولات الفرار التي كانت كالأتي:

أ- المحاولة الأولى: كانت خطته الأولى الهرب برا إلى وهران التي كانت تابعة لإسبانيا آنذاك، كانت رحلة تمتد حوالي 240 كيلومترا في الأدغال بين الحيوانات البرية، ومن المستحيل التنقل دون دليل، ولقد كان سيرفانتس مستعجلا حتى يتجنب التراجع عن قراره، حيث انطلق في محاولته مع بعض الأسرى بقيادة دليل طلب منهم الكثير من الأموال، خرجوا متخفين من مدينة الجزائر ومشوا ليومين، إلى غاية تركهم من قبل الدليل في الريف، ما اضطرهم للعودة إلى آسريهم حيث لم يستطيعوا إيجاد الطريق، وتأثر سيرفانتس لهذا كثيرا إذ عزف عن إعادة المحاولة لوقت طويل.

ب-المحاولة الثانية: في أحد الأيام كان سيرفانتس يمشي في نواحي شرق مدينة الجزائر، أمام بستان سمع صوت إسباني يغني، كان هذا الإسباني سجينا من منطقة نافار بشمال إسبانيا يخدم منشقا يونانيا يسمى حسن، تبادل معه سيرفانتس الحديث، في نفس الوقت لاحظ كهفا وخطرت له فكرة أنه المكان المناسب للاختباء والهروب، هذه المرة عبر البحر حيث فرصة الهرب أكبر، حيث يجب الحصول على قارب بعد ذلك هناك أمل، أما الانطلاق فيجب أن يكون ليلا، لكن مساء تقفل أبواب المدينة، لذلك يجب على السجناء أن يكونوا خارج الجدران قبل ذلك، حيث سيوفر لهم هذا الكهف الموارد، لقد تخيل سيرفانتس العملية واستخدم مهارته في إقناع "خوان النافاري" بالهرب، ولقد جلب سيرفانتس الأسرى الذين يوافقون للحفر في هذا الكهف[1] لأسابيع و أشهر في الظلام والرطوبة أملا في الحرية.

لم تكن الصعوبة في تجنيد السجناء لذلك بل تمثلت في إطعامهم جيدا وتجنب إفشائهم الأمر، وقد وضع في ذلك كل مجهوداته وعبقريته، كما أعانه البستاني خوان أيضا، لكنه لم يكن يستطيع ضمان استمرار هذه المهمة لتزايد عدد المشاركين، فتوجب عليه إيجاد شخص موثوق يساعده لتجنب المؤامرات، إلا أنه لم يكن يعرف الرجال جيدا، حيث بدأ في التهور حين كلف مرتدا مرتين يلقب "المطلي" من مليلة كان يخدم يهوديا، ولم يفكر سيرفانتس بسلبية أبدا[2].

أصبح السجناء في الكهف ولم يبق إلا إيجاد قارب يبعدهم عن منطقة الأتراك، إلى سفينة إسبانية، حيث قد بعث سيرفانتس مع أخيه رودريغو رسائل سلمها لنائب فلنسيا و البليار، يطلب فيها مساعدته على تحقيق مشروع الهروب

[1] الكهف الذي كان ملجأ لسيرفانتس و مرافقيه الأسرى متواجد في جانب تلة الحامة، وقد كان مظلما ووعرا. انظر:
Frey Diego de Haëdo: op.cit, p337.

[2] Raymond Recouly: op.cit, p93-97.

وحانت الليلة المتفق عليها خرج الأسرى من الكهف وهم يراقبون الإشارة المعتمدة حتى ظهر الضوء وبدأ في الاقتراب فبدأ الأسرى ينزلون إلى الشاطئ استعدادا للانطلاق، لكن في اللحظة الحاسمة ولسوء حظهم ظهر صيادون وبدؤوا يصرخون، فانسحب قارب الإجلاء خوفا من مؤامرة، ثم عاد الأسرى محبطين للكهف منتظرين الليلة الموالية، لكن داهمتهم قوة عسكرية محلية بعد وشاية الأسير المليلي ألدورادو"مطلي"[1]. تحمل سيرفانتس كامل المسؤولية عن عملية الهروب، ولأن فديته المرتقبة عالية القيمة لم يقتل، أما الضحية في هذه العملية فقد كان البستاني خوان حيث علقه سيده على شجرة وبعد معاناة رهيبة انفجرت شرايينه ثم رأسه[2].

بعد اعتقالهم أمر الحاكم باقتيادهم إلى سجنه ومراقبتهم عن كثب، ولم يبق معه إلا ميغيل سيرفانتس أملا في جعله يعترف بأن المخطط للعملية هو القس "جورج أوليفي George Olivier" من منظمة سيدة الرحمة وحاكم فلنسيا مسؤول الافتداء في مملكة أراغون ، ورغم أسئلته المستفزة وتهديداته لم يفلح في ذلك، وقد عمد الحاكم لهذا عملا بما قاله السجين المليلي أن القس عرض عليه مساعدته مقابل مبلغ كبير من المال.

تحمل ميغيل سيرفانتس كل المسؤولية عن عملية الهروب، ثم أرسله الحاكم لسجنه محتفظا به كعبد ولكن اضطر بعد هذا إلى إعادته مع ثلاثة آخرين إلى مالكيهم الرسميين، وقد كان تعذيب وقتل البستاني مثالا للأسرى الآخرين. لقد بقي البعض من هؤلاء الأسرى في الكهف لمدة سبعة أشهر والآخرون لمدة خمسة أشهر وبعضهم أقل، دون رؤية الشمس وكانوا يخرجون ليلا فقط، وقد خاطر سيرفانتس بحياته كل هذه المدة لتوفير احتياجاتهم وفي سبيل تحرير عدد كبير من الأسرى[3].

ج–محاولات أخرى: في محاولة هرب طلب المساعدة عبر رسالة إلا أنها اعترضت، بعدها رسم خطة للهرب مع ستين أسيرا من مواطنيه الإسبان لكن تم اكتشاف الخطة بعد أن تمت خيانته وقد تحمل المسؤولية كاملة عنها، في الأخير فقد خطط لمشروع عصيان كبير من قبل كل المسيحيين الأسرى في الجزائر وقد كانت إمكانية نجاحه كبيرة حيث بلغ

[1] قرر السجين المليلي اعتناق الإسلام مجددا، أملا في نيل التقدير من الحاكم والأتراك، وخاصة من سادة الأسرى، حيث يوم 30 سبتمبر ذهب إلى الحاكم حسن وطلب منه الإذن في اعتناق الإسلام مجددا، وأنه سيقدم له خدمة متمثلة في دله على كهف يجد فيه 15 مسيحيا مختبئين على أمل الإبحار إلى مايوركا، وقد فرح الحاكم كثيرا لهذا وأمر حارسه باصطحاب مجموعة من الجند وإتباع السجين المليلي الذي سيدلهم على مكان الأسرى المختبئين، وجلبهم إليه حيث اصطحب الحارس 8 فرسان و24 مشاة مسلحين واعتقلوا كل المسيحيين في الكهف، انظر: Fray Diego de Haëdo: op.cit, p339-340.

[2] Raymond Recouly: op.cit, p97-99.

[3] Fray Diego de Haëdo: op.cit, p340-341.

عدد الأسرى حوالي 25 ألفا، هذا المشروع كان بمثابة تحذير للحاكم، كاد سيرفانتس أن يموت في أربع من محاولات هربه نتيجة للتعذيب الذي كان يتعرض له.[1]

2-تحرير سيرفانتس: في 19 سبتمبر 1580م كان سيرفانتس على وشك أن ينقل إلى القسطنطينية في إحدى سفن حسن باشا، ولحسن الحظ قدم الآباء الثالوثين لمدينة الجزائر لافتداء أسرى، حاملين معهم ما تبقى من ثروة أم وأخوات سيرفانتس –والده قد توفي–، وبعد استدانة وترجي حسن باشا نجحوا في تحرير سيرفانتس[2]، بلغت فديته 6770 ريو (عملة إسبانية قديمة)، وقد كان أسيرا لمدة 5 سنوات إلا 4 أيام[3].

خرج سيرفانتس من المركب الذي كان سينقله إلى القسطنطينية ليباع في أسواق رقيقها، وقد طلب في الفاتح من أكتوبر تقريرا عن حياته خلال أسره في الجزائر من الأب "خوان خيل" ممثل ملك إسبانيا والبابا، انتهى التقرير في 22 من أكتوبر فكان مشرفا حيث ختم كالتالي: «وأثناء أسره قام بأعمال مجيدة تستحق من جلالتكم أن يكفأ عليها» وتضمن التقرير شهادات العديد من نخبة الأسرى الإسبان والتي أكدت على مدى نبل وتضحية سيرفانتس في سبيل رفقائه في الأسر مخاطرا بحياته، ولكن وجب الإشارة أن هذا التقرير لم ينفعه في مدريد حسب ما كان يعتقده[4].

3-سيرفانتس يعود إلى إسبانيا: رجح وصول سيرفانتس يوم 24 أكتوبر 1580م وقد نزل ببلدة دانية التابعة لفالنسيا، واستقبل مع الأسرى العائدين معه من قبل جمع غفير من الناس، أقام بها بضعة أيام في انتظار استقبالهم رسميا في فالنسيا والذي كان استقبالا حافلا ثم توجه إلى الكاتدرائية للشكر، بقي سيرفانتس في فالنسيا مدة شهرين دارسا أحوال إسبانيا السياسية، كما كتب لعائلته بوصوله سالما ملتمسا منهم بعض المساعدة، ثم في أواخر سنة[5] 1580م وصل إلى مدريد أين استقبلته عائلته التي كانت في حالة مزرية ، وقد انخرط أخوه رودريغو في فرقة عسكرية انتقلت إلى البرتغال، بقي سيرفانتس في مدريد لمدة قصيرة درس فيها الوضعية السياسية والنفسية في العاصمة، مطلعا على ما آلت إليه الأمور من انحلال أخلاقي وفساد في البلاط، فقرر السفر إلى البرتغال وبينما كان يعد الوثائق اللازمة لذلك تردد إلى النوادي الأدبية فتعرف على التيارات الأدبية الجديدة وقرأ المؤلفات الحديثة وأحس بنشاطه الأدبي يتجدد.

---

[1] G Ticknor: op.cit, p144-145.

[2] Reinhold Baumstark: une excursion en Espagne, tr M le Baron de Lamezan, Tolra libraire éditeur, Paris, France,1872, p330.

[3] C.B Dumaine: op.cit, p74.

[4] نجيب أبو ملهم و موسى عبود: المرجع السابق، ص100-101.

[5] نجيب أبو ملهم و موسى عبود: المرجع نفسه، ص104-106.

أسند البلاط البرتغالي مهمة سرية لسيرفانتس متمثلة في نقل رسالة وتعليمات شفهية إلى حاكم قلعة مستغانم بالجزائر وقد أداها على أكمل وجه وكان أجره 100 إسكودو (عملة برتغالية)، ثم تفرغ لقضاء وقت راحة في العاصمة البرتغالية[1]. مرت إقامة سيرفانتس في البرتغال بأحداث مهمة في حياته، حيث رغم أنه كان جنديا بسيطا وجد تقديرا كبيرا في أرقى مجتمعات لشبونة، نظرا لمعارفه وثقافته وأهميته التي اكتسبها طوال فترة أسره ما جعل منه شخصا مميزا حيث استقبل برحابة في كل مكان، وتأثر الكل بطريقة سرده للأحداث ومدى تأثير كلماته، وقد أنجبت له امرأة من لشبونة طفلة تسمى "دونا إيزابيل دو سافيدرا" والتي أبقاها معه ولم يفارقها حتى عند زواجه[2].

تزوج سيرفانتس في 12 ديسمبر 1584م، امرأة من منطقة إسكيفيا اسمها "دونا كاتالينا دو بالاسيوز يسالازار يفوزميديانو dona Catalina de palacios y salazar y vozmediano" ولقد كان زواجا بسيطا بحكم أن سيرفانتس كان فقيرا، أما عن زوجته فقد كانت من عائلة نبيلة لديها قطع أراضي، وقد أبرم العقد السيد "ألونسو دو أغويليرا Alonso de aguilera" ثم انتقل سيرفانتس بسرعة إلى مدريد للعيش على أعماله و مؤلفاته[3].

خلال السنوات الأربع التي تلت زواجه عانى سيرفانتس من الفقر فاضطر للعمل في المسرح، ثم حصل على وظيفة تتمثل في تموين الجيش في إشبيلية، ولكن بفعل وشاية فرنسيسكو موسكوسو وهوأحد المفتشين به، أودع سيرفانتس السجن لمدة قصيرة، وقد شغل وظيفة الممون لمدة 5 سنوات من 1588م إلى 1593م، أتم فيها عمله المعنون بـ**الأمثلة الجديدة**.

سافر سيرفانتس إلى بلد الوليد سنة 1603م، رفقة زوجته وابنته وأخته ماغدالينا للعيش مع أخته أندريا، التي استقبلتهم بسرور كبير، وتحسنت أوضاعهم المادية نظرا لنجاح رواية سيرفانتس "دون كيشوت" الصادرة سنة 1605م، سجن سيرفانتس مجددا سنة 1605م، مع عائلته غير أنهم نالوا حريتهم بسرعة، ثم قرر الانتقال إلى مدريد وعاش باطمئنان، حيث تزوجت ابنته إيزابيل بأحد النبلاء لكنه مات بعد أن رزق بطفلة، ثم تزوجت ابنته مجددا بشاب كان أسيرا أيضا بالجزائر، وبعد مدة توفيت أخت سيرفانتس دونا أندريا، وقد حزن لهذا كثيرا[4].

[1] نجيب أبو ملهم و موسى عبود: المرجع السابق ص106-112.

[2] Pierre Lefranc: le livre d´or des peuples Plutarque universel, Henri Willems et Cie éditeurs, Paris, France, sd, p103.

[3] Emile Chasles: op.cit, p208.

[4] عائشة محمة: المرجع السابق، ص132.

4-وفاة سيرفانتس: في أواخر سنة 1615م، مرض سيرفانتس وهو في 68 سنة من عمره، حيث أصيب بداء الاستسقاء، وقد يأس طبيبه من شفائه كما وجب عليه الخروج من مدريد، توجه إلى عائلة زوجته في إيكيفيا، واستقر في مزرعة صغيرة[1]، استمرت صحته في التدهور ، ولم يعرف راحة أثناء إقامته بالمزرعة، فعاد إلى مدريد رفقة صديقين، وقد كان يعمل حين تخف آلامه حيث أثناء رحلته إلى مدريد كتب مقدمة كتابه برسيلس[2]، في 17 أفريل 1616م، جدد سيرفانتس توديع أصدقائه، وفي 18 أفريل أملى مقدمة بيرسليس وسيجيموند والمهداة لصديقه الكونت ليموس[3] ، كما أوصى زوجته وواحدا من جيرانه حيث طلب أن يدفن في كنيسة الرهبان الثلاثيين التنظيم الذي كان يميل إليه، و هو المكان الذي عمد فيه ابنته إيزابيل. توفي يوم 23 أفريل 1616م، وهو كذلك غالبا يوم وفاة شيكسبير في إنجلترا[4]، وقد لفظ أنفاسه محاطا بزوجته وابنته وابنة أخته والكاهن دون فرنسيسكو مرتينس مرسيا، و لم يحضر جنازته إلا عدد قليل من أصدقائه والأديبان لويس فرنسيسكو كالديرون و فرنسيسكو دي أوربينا كما لم توضع على قبره أي علامة[5].

يتضح مما سبق أن ميغيل دي سيرفانتس كان من أبرز الشخصيات الأسيرة التي عاشت في الجزائر خلال العهد العثماني و غادرتها بعد أن تم افتداؤها و هذا بعد عدة محاولات للهرب، حيث استغل هذا الأخير فترة أسره في كتابة بعض الأعمال الأدبية التي ستنشر فيما بعد لتكون سبب في شهرة هذا الشخص .

[1] Lucien Biart: op.cit, p222.

[2] Lucien Biart: ibid, p225.

[3] Lucien Biart: ibid, p227.

[4] Lucien Biart: ibid, p229.

[5] نجيب أبو ملهم و موسى عبود: المرجع السابق، ص180.

الفصل الثالث

أهم الأعمال الأدبية لسيرفانتس

المبحث الأول: رواية دون كيشوت.

المبحث الثاني: رواية الأسير، غالاتيا، بيرسليس وسيجيموند.

المبحث الثالث: نماذج من مسرحياته.

اشتهر ميغيل دي سيرفانتس بكونه أديبا حيث قدم عدة أعمال في مجال الرواية و الأدب تشهد على براعته في التأليف و الكتابة، كما قدم أيضا مجموعة من المسرحيات ذات المواضيع المختلفة و التي تأكد سعة خياله حيث اتخذ سيرفانتس فترة أسره في الجزائر كمنطلق لهذه الأعمال التي انتشرت و ترجمت إلى مختلف اللغات وهو ما سنتطرق إليه في أسطر هذا الفصل .

المبحث الأول: رواية دون كيشوت:

1- تقديم الرواية:

كتب القسم الأول من رواية دون كيشوت سنة 1603م، وحصل على تصريح النشر سنة 1604م، ونشر -في مدريد في شهر جانفي سنة 1605م، وقد كان بمثابة مفاجأة أدبية كبرى للعالم، صدرت 5 طبعات منه في نفس العام وترجم إلى الإنجليزية سنة 1612م، ثم إلى الفرنسية سنة 1614م، دون أن تتوقف طبعاته باللغة الإسبانية، إلا أن الجزء الثاني منه لم يصدر إلى غاية سنة 1615م، يليه صدور العمل كاملا بجزأيه سنة 1617م، وقد قال فيه سيرفانتس: «لن توجد أمة أو لغة دون أن تترجمه».

تعتبر الرواية الحديثة من اختراع سيرفانتس، حيث أن دون كيشوت أول رواية حديثة وصارت أما لكل رواية كبيرة اليوم، إذ أن ذلك النوع الأدبي الذي أطلقوا عليه في القرن التاسع عشر اسم "الرواية" افتتحته دون سابقة رواية دون كيشوت التي توفرت فيها شروط الرواية الحديثة باعتبار عناصرها آتية من الشارع، حيث أن دون كيشوت يقرأ كتب الفروسية ذات الخيال الجامح ويعتقدها حقيقة مقررا محاكاتها بعيش الخيال في واقع لا يقبله، كما أنه يعرف كل شيء عن ثقافة عصره والعصور الماضية فيختلط الخيال بالواقع في عقله، مدهشا العالم بعلمه وجنونه، ويخرج من قريته وبيته بحثا عن المغامرة ليعيش حياة الفرسان بكل الخيال الجامح في كتب الفروسية، فقد كان إنسانا يريد عيش الشعر في الواقع فيمنعه الأخير ذلك، فتحدث عليه تحولات سحرية زائلة ليكتشف وجه الواقع بعدها، وتصبح مغامراته الوهمية خطا بين الواقع والخيال، مستمدا منها ومئات الشخصيات (على رأسها خادمه سانشو) أبعادها النفسية، وأدوات التعرف على ذاتها وذوات الآخرين، وقد تحول هذا الخط الوهمي إلى تقنية بديعة تتمثل في المكان، في سلسلة من الأحداث يختلط فيها الخيال بالواقع بدلالة عميقة ومفارقة مضحكة، أو في المغامرة حيث لا شيء له دلالة إلا كما نراه بين واقعه وخيالنا أو أمانينا[1].

[1] ميجيل دي ثربانتس سابيدرا: الشريف العبقري دون كيخوتي دي لامانشا الشهير بين العرب باسم "دون كيشوت"، تر سليمان العطار، ج1، ط2، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، 2014، ص16-20.

2- قراءة في رواية دون كيشوت:

"دون كيشوت" رجل نحيف طويل ناهز الخمسين من عمره، برجوازي متوسط الحال، يعيش في إحدى قرى إسبانيا إبان القرن 16م، ولم يكن متزوجا، كثير مطالعة كتب الفروسية حيث كاد أن يفقد عقله، وينقطع عن الحياة الواقعية، بلغ درجة الهوس ما جعله يقرر محاكاة دور الفرسان الجوالين في نصرهم للضعفاء.

أعد العدة مستخرجا سلاحا قديما ومتآكلا خلفه له آباؤه من ركن خفي بمنزله، وقد صقله ونظفه وصنع خوذة من الكرتون، ثم حمل سلاحا وسيفا وركب حصانا أعجف هزيلا منطلقا على هيئة الفرسان السابقين، ثم تذكر أن الفارس الجوال لا بد له من تابع أمين، فعمد إلى فلاح ساذج من أبناء بلدته وهو "سانشو بانزا" وقال له: «أنه ينبغي أن لا يخشى شيئا حين يأتي معه، وأنه سيربح الكثير...وأنه ربما أعطاه بدلا من القش و الفضلات التي سيتركها حكم إحدى الجزر»، وقد اقتنع سانشو بهذا تاركا امرأته وأولاده تابعا جاره مرافقا وحاملا لسلاحه.

كان سانشو ضخم البنية عكس صاحبه دون كيشوت الطويل الهزيل، ومن منظر الرجلين تبدأ المفارقات المضحكة، مستمرة طوال الرواية الكوميدية ذات الأسلوب الجميل، وأول المعارك التي سعى هذا الفارس الوهمي خوضها كانت ضد طواحين الهواء ظنا أنها شياطين بأذرع هائلة، معتقدا أنها مصدر الشر في الدنيا، فهاجمها راشقا فيها رمحه متجنبا تحذير تابعه، فرفعته بأذرعها ودارت به ورمته أرضا، ثم كانت معركة الأغنام الشهيرة، حيث أبصر دون كيشوت غبار قطيع غنم فاعتقده زحف جيش جرار، ثم اندفع لخوض المعركة ليثبت شجاعته ويخلد اسمه، وقد قتل عددا من الأغنام وسقط تحت وابل من أحجار الرعاة، فاقدا بعض أسنانه، ولم يسلم سانشو المسكين خلال مغامرات سيده المزعوم من الأذى، رغم أنه مسالم مؤثر للسكينة على القتال، حيث تكمن المشكلة في أن دون كيشوت فارس لا يسمح له إلا قتال الفرسان، ما يفرض على سانشو مواجهة عدوان المدنيين إذا حصل، متحملا الكلمات والضرب والرجم، مثلما حدث معهم عند احتكاك فرس دون كيشوت بأفراس فريق من البالغين الذين لجؤوا لعصيهم وأوسعوا دون كيشوت و سانشو ضربا بنشاط وهمة وسرعة عجيبة، حيث سقط سانشو أرضا من هجمتهم الثانية، ولم تنفع شجاعة دون كيشوت الذي لقي حال تابعه[1].

[1] هدى بن جديد: دون كيشوت في الرواية الجزائرية-دراسة مقارنة في نماذج-، مذكرة ماجستير، إش نظيرة الكنز، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، 2011-2012، ص11-12.

حدث نفس الشيء مرة أخرى بعد رفض دون كيشوت دفع أجر مبيتهما في فندق على الطريق متوهما أنه بات الليلة في قلعة فرسان، وتتوالى مغامراته وهزائمه جارا سانشو المغلوب على أمره، وقد كان يفسر كل هزيمة يمنى بها أن خصومه من السحرة أرادوا حرمانه من نصر مؤكد، محولين العمالقة الشياطين إلى طواحين هواء والفرسان المحاربين إلى أغنام. ثم جلد دون كيشوت سانشو لاعتباره إياه لا يعرف أن دولوسينا قبيحة، إنه يعرف أنها مجرد فتاة قروية سوقية، لكنها تبقى كذلك (جميلة)، حيث نادى سانشو صائحا في وجهه: «لنتكلم باحترام عن كل ما يخص السيدة دولوسينية، فهذه وسيلتنا للعيش... »

تتواصل مغامرات دون كيشوت حيث ينقض على دمى متحركة قاطعا رأسها لمنعها من اعتقال عاشق وأميرته الهاربان للحرية، معوضا صاحب الدمى بسخاء لقاء "دين الشرف" هذا. و في الفصل الأخير تبرأ دون كيشوت المحتضر من "أشباح الجهل السوداء" التي جاءته من القراءة في كتبه البغيضة عن الفروسية، نادما على شيء واحد فقط ألا وهو عدم امتلاكه الوقت الكافي لقراءة كتب أخرى يمكن ألآن تنير الروح.

الملاحظ في الرواية أن سيرفانتس جعل كل الشخصيات مهيئة لخدمة بطله دون كيشوت، الذي أسرته فكرة أنه فارس مغوار ألقي على عاتقه إنقاذ العالم من الظلم والفساد، محاولا تطبيق كل القيم التي قرأها في الروايات، وقد أظهره سيرفانتس إنسانا عاديا يعيش أوهاما من قراءة الكتب كثيرا، وأنه بطل لمثابرته الشديدة رغم فشله المتواصل، وكذا اتخاذه من دلوسينا وعيونها دافعا لإكمال مسيرته وبطولاته، مسخرا له شخصية سانشو التابعة حيث أصبح من الصعب تخيل دون كيشوت دون خادمه باعتبارهما وجهين أساسيين للطبعة الإسبانية، كما يولد التناقض بين سانشو الجبان الهادئ وبين دون كيشوت الشجاع اللامبالي نوعا من السخرية الضاحكة.

كل هذه المميزات جعلت من دون "كيشوت" رواية فريدة ارتبط نجاحها بصاحبها سيرفانتس الذي عاش ظروفا صعبة ومتعبة أسهمت في ميلاد هذا النموذج الأدبي (الرواية)[1].

تجدر الإشارة أنه سنة 1614م، ومن مطبعة فيليب روبيرتو في مدينة تاراغونا ظهر الجزء الثاني من" العبقري النبيل دون كيشوت دي لامانشا" ، من تأليف الجامعي "ألونسو فيرناندیث دي أبياندا"، المولود في تورتيسياس في برشلونة حيث واصل هذا الشاب عمل سيرفانتس مع فارق كبير بين عظمة عبقرية سرفانتس وتواضعها [2] عند الآخر، رغم احتوائه على بعض المقاطع الممتعة، وإضافة لسرقة شخصيات سيرفانتس تهجم أبياندا على سيرفانتس نفسه بشتمه في

[1] هدى بن جديد: المرجع السابق، ص12-14.

[2] محسن الرملي: الأدب الإسباني في عصره الذهبي، ط1، دار المدى، بغداد، العراق، 2015، ص167.

مقدمته، حيث قال: «لديه لسان أكثر مما لديه من أيد، كل شيء يثير غضبه، ولذا فهم بلا أصدقاء...»، ويتحدث عن الجزء الأول من عمل سيرفانتس بالقول: «شكاء، متمتم، عديم الصبر ومتلون»، ما دفع بسيرفانتس إلى الرد عليه بذكاء وأناقة في الجزء الثاني من عمله وفي المقدمة ذاتها أيضا، مشير إلى عدم معرفته بمن يكون أبياندا حقيقة، رغم أن هناك ظنا بأنه الأراغوني الجندي "خيرونيمو دي باسامونته" الذي صوره سيرفانتس بسخرية شديدة عبر شخصية السجين السيء "خينيس باسامونه" الذي حرره دون كيشوت في الجزء الأول من الرواية[1].

3- العلاقة بين شخصية دون كيشوت وشخصية ميغال سيرفانتس:

كانت رواية دون كيشوت بمثابة ذكريات حياة سيرفانتس نفسه، وطموحه وأحلامه وشقائه، وهذا ما تجلى في كل صفحة من صفحات الكتاب، كما لمح فيه إلى بعض من شخصيات عصره، ويمكن القول أن دون كيشوت هو سيرفانتس نفسه مجردا عن الظروف السطحية كلها ولكنه صعب الفهم والإدراك الخيالي، مترفعا فوق الزمان والمكان حيث يلمس قلوب الذين حلقوا بأحلامهم فوق الوسائط التي يمتلكونها، وذلك لتحقيق أحلامهم، ما يؤكد أن العلاقة بين سيرفانتس ومؤلفه وطيدة[2].

هناك تشابه كبير بين اندفاع دون كيشوت الرجل النبيل المسن الذي انخرط في الجيش وهو لا يزال يحلم بأمجاد السلاح، واندفاع ميغيل سيرفانتس الشاب إلى الانخراط في الجيش بإيطاليا، وكذا بسوء الحظ نفسه حيث كان سيرفانتس جريحا أسيرا مشوه حرب دون معاش منسيا من السادة الذين خدمهم مدحورا شاحبا رغم شجاعته في كل معاركه، فدون كيشوت عرف الخيبة ذاتها إذ أن كل انتصاراته كانت وهمية ونتيجتها السليبة بدت قاسية مؤلمة، وهما معا لا يمكن إصلاحهما لعيشهما في الأوهام والمخيلة المثالية أين يسيطر العدل والطيبة، وبما أن سيرفانتس لم يجرؤ في سن الخمسين حين كتابته للرواية على الانصراف لأحلامه السامية فقد نسبها إلى دون كيشوت وتخيل مصيرا كبيرا له كما تخيله لنفسه كما أن دون كيشوت بعد أن خاطر كثيرا وكافح وتألم رأى نفسه مضطرا للعودة إلى مسقط رأسه ليموت هناك وهذا ما مرت به حياة سيرفانتس تقريبا حيث أن كلاهما رضيا الانحدار بطمأنينة، إذ أن الروح الملتهبة للرجل المغلوب سيرفانتس تمر من خلال الفارس التائه الشفاف مقوم العيوب-دون كيشوت- وتوجد الرجل الوسط الممثل بالفارس، وهذا من الدروس التي تعرضها الرواية بسخرية من انحدار رجل مثالي ورغم ذلك تستخرج منه أصوب الفلسفات وأكثرها رجولة[3].

[1] محسن الرملي: المرجع السابق، ص167.

[2] هدى بن جديد: المرجع السابق، ص7.

[3] جان كامب: الأدب الإسباني، تر بهيج شعبان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1956، ص61-64.

4-العرب والمسلمين في رواية دون كيشوت:

أ – صورة الحاكم المسلم: قدم سيرفانتس في روايته دون كيشوت الشخصية العربية المسلمة برؤية معادية، فهي تتسم بالكفر والشر والسحر، وما يوضح تلك السمات التجلي الفني للسرد في الفصل الثامن عشر من القسم الأول بلسان دون كيشوت موضحا لتابعه سانشو سبب المواجهة بين بنثابولين المشمر الذراع ملك القرمانتيين في وسط إفريقيا وبين علي الفياش حاكم جزيرة سرنديب المسلم، قائلا: «هما يتحاربان لأن علي الفياش هذا رجل كافر غضوب، وقع في غرام بنت بنثابولين وهي فتاة رائعة الجمال راقية الآداب، هي نصرانية وأبوها لا يريد أن يزفها إلى ملك كافر، إلا إذا تخلى عن شريعة نبيه واعتنق شريعة حبيبته».

ب–صورة العرب: يظهر العرب في الفصل الثامن عشر من القسم الأول في الرواية، أصحاب خيام متنقلة بين بلاد العرب السعيدة (اليمن)، والبلاد العربية القاحلة (نجد)، والبلاد العربية المتحجرة (الحجاز)، دون أي إشارة إيجابية لحضارتهم العمرانية الراقية المتسامحة، وكأن الذين بنوا الحضارة في الأندلس وأشاعوا النور في إسبانيا ليسوا عربا ولا مسلمين، فهم عند سيرفانتس سحرة محتالون، ما يظهر في اعتقاد دون كيشوت وسائسه سانشو أن من طحن عضامهما في الفندق–الذي اعتقده دون كيشوت قلعة فرسان– هم سحرة عرب —حسب إجابته لسانشو–، فالعرب عند سيرفانتس كائنات خفية خيالية، وقد خص الأوصاف السلبية بكل العرب، ما يدل على غضب وحقد وكراهية سيرفانتس للعرب.

ج–صورة العرب المتنصرين: انساق سيرفانتس في بعض فصول روايته وراء تعصبه وعنصريته، فجعل بعضا من العرب المتنصرين يسبون بني جلدتهم، ويمدحون كل من أسهم في تنقية إسبانيا منهم، وهذا ما يظهر في الفصل الخامس والستين من القسم الثاني في الرواية، ومنه وصف سيرفانتس الموريسكيين بالأفعى على لسان ابن جلدتهم تاجر الخرداوات جار سانشو المسمى ريكورته الذي قال لجاره: «إنه من عدم الفطنة أن يغذي المرء في داره الأفعى والإبقاء على الأعداء...»–قاصدا المورسكيين رغم أنه منهم– .

د–صورة المسلمين الأتراك: لا ترتبط صورتهم السلبية التي قدمها سيرفانتس في دون كيشوت بالخلاف الديني الإسلامي المسيحي في عصره، لأن تصويره للموريسكيين لم يكن منصفا رغم تركهم للإسلام، بل تعود لفترة أسره بالجزائر كمحاولة للاقتصاص من سجانه التركي، مكيلا له الشتائم والاتهامات والصفات السيئة، وقد ورد في الفصل الثالث والستين من الرواية على لسان فتاة نصرانية التي وصفتهم بالشذوذ والانحراف الأخلاقي[1].

– علج علي في رواية دون كيشوت: قال عنه سيرفانتس: « كان يسمى عادة باسم علج علي فرتكس، ومعنى هذا باللغة التركية المرتد الأجرب، وكان كذلك فعلا...وكان العلج علي طوال أربعة عشرة سنة عبدا للسلطان الأعظم

[1] وفاء سامي الاستانبولي: صورة العرب والمسلمين في رواية دون كيخوته، مجلة حوليات التراث، ع 11، 2011، جامعة مستغانم، الجزائر، ص105–108.

و لما بلغ الرابعة والثلاثين من العمر تحول عن دينه، لما أن خدعه تركي، واعتنق الإسلام لينتقم لنفسه، وتميز بشجاعته الفائقة حتى صار ملكا على الجزائر دون أن يمر بالمراتب الوسطى التي اعتاد أن يشغلها محاسيب-خدمه- السلطان، ثم صار أمير البحر، وهو ثالث منصب في الدولة».

- حسن فنزيانو في رواية دون كيشوت: قال عنه سيرفانتس: «أما أنا فكنت من نصيب أحد البنادقة، وكان من قبل ملاحا، ومن أقرب المقربين إلى العلج علي الذي أسره في البحر، وكان أقسى انكشاري وجد، وكان اسمه حسن آغا وصار غنيا جدا، عين ملكا على الجزائر»[1].

حسب سليمان العطار في تقديم ترجمته لرواية دون كيشوت أن عملا كبيرا مثلها لا يمكن أن يحمل عنصرية في طياته، إذ أن سيرفانتس حسبه قدم أبدع صورة لحاضر إسبانيا في عصره، بكل إخلاص وواقعية ملفوفة في جو من الخيال حيث إلى غاية صدور القسم الأول من الرواية عاش الإسبان و الموريسكيين معا رغم أن الموريسكيين ادعوا النصرانية ظاهرا فقط، وأن سيرفانتس قد نقل فقط جو محاكم التفتيش والترهيب ضد الديانات والمذاهب غير المسيحية الكاثوليكية في إسبانيا، أي تقديم الواقع الإسباني كما هو في جو من السخرية، حتى من أعلى سلطة الكنيسة، ومع ذلك لم يسخر قط من الإسلام، وإنما في بعض المشاهد النادرة من العمل قدم تصور الجهلاء (وهم أغلبية) الخاطئ للإسلام، وحتى في بعض الأحيان نقلا عن كتب الفروسية، كتصور مسيحيي إسبانيا أن معتقد المسلمين حول الرسول مُحَمَّد ﷺ هو نفس معتقدهم حول المسيح الذي تملأ تماثيله الكنائس، وليست آراء الكاتب، الذي يعلن احترامه للعرب والإسلام بذكاء نادر في موقفين، أولهما زعمه أن الرواية كلها على لسان عربي مسلم هو سيدي حامدي بن إنجلين، والثاني موقف ثار فيه دون كيشوت وأشهر سيفه ضد راوي إحدى الحكايات عند إساءته للنظام القضائي في الإسلام[2].

في حين يورد بلقاسم قرباش أن رواية دون كيشوت تشوبها النظرة السلبية للكاتب نحو الأندلسيين والعرب والأتراك، ومن ذلك وصفه في إحدى صفحاتها أندلسيا بأنه داهية ولص مغرق اللصوصية في مهنته، كما ذكر فيها مشاهد من أسره بطريقة غير مباشرة إضافة إلى النزاع الوهمي بين الخيال والحلم والواقع[3].

[1] وفاء المصمودي: ميكيل دي ثربانتس والصراع الإسلامي المسيحي بالبحر الأبيض المتوسط خلال القرن السادس عشر، مجلة مدارات تاريخية، مج1، ع1، مارس 2019م، مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات، الجزائر، ص68-70.

[2] ميجيل دي ثربانتس سابيدرا: المصدر السابق، ص21-22.

[3] بلقاسم قرباش: الكتابات الغربية ودورها في تشويه تاريخ الجزائر العثماني، مجلة كان التاريخية، ع23، مارس 2014، دار ناشري، الكويت، ص119-120.

المبحث الثاني: رواية الأسير، غالاتيا، بيرسليس وسيجيموند :

أ – رواية الأسير: قصة مستخرجة من رواية دون كيشوت، فهي تشكل الفصول من 39 إلى 41 من الجزء الأول، حيث أن دون كيشوت عند عودته من الفندق الذي اعتقده قلعة، التقى جماعة من السيدات والسادة إضافة إلى كاهن وحلاق، وقد خصص لهم بعض الوقت ليروي لهم هذه القصة.

المغامرات المروية هنا ليست كالسابقة، ولها علاقة مباشرة بفترة أسر سيرفانتس بالجزائر، أما عن بطلها الحقيقي فهو القبطان "راي بيريز دو فيدما Ray Perez de Viedma" وهو صديق سيرفانتس في فترة أسره عند حسن أغا، أما عن سيرفانتس فيظهر تحت اسم "سافيدرا" في هذه الرواية وهو شاهد عن هذه المغامرات، حيث أنه جندي بسيط مسجون في حين أن الشخصية الرئيسية هي القبطان راي بيريز[1].

ذكر سيرفانتس في هذه القصة أصناف الأسرى المسيحيين في سجون مدينة الجزائر، وهم أسرى الحاكم و أسرى الخواص وأسرى –المستودع– أي أسرى الدولة، والذين يستغلون في العمل في مختلف الأعمال العامة في المدينة بالإضافة إلى أعمال أخرى، مشيرا إلى أن هذا الصنف يصعب حصوله على الحرية، لأنهم من فئة العامة كما أن لا سيد لهم يتفاوضون معه لتحريرهم، ولا يملكون الموارد لذلك، كما أشار أن بعضا من الأفراد يلجؤون لوضع أسراهم في هذه السجون حفاظا عليهم، في انتظار افتدائهم، ولتسريع ذلك يجبرونهم على العمل في قطع الأخشاب وهو عمل شاق ليفرضوا عليهم إعلام أقربائهم بهذه الأوضاع وبالتالي تسريع افتدائهم[2]. نقل سيرفانتس في هذه الرواية أحوال الأسرى المزرية وقسوة سادتهم، مشيرا إلى أسره في الجزائر تحت اسم أسير سماه "سافيدرا"، والذي قام بالعديد من محاولات الهرب ولم يعاقب أو يتعرض للإهانة –لاعتباره أسيرا ذا قيمة عالية–، كما نقل كيف كان الأسرى يتسلون بالسلاسل الحديدية كوسيلة ترفيه[3].

[1] Cervantès: Le captif-histoire extraite de Don Quichotte-, tr J Merson, librairie de L Hachette et Cie, Paris, France, 1864, p1.

[2] Fayçal Bensaadi: op.cit, p 124.

[3] ميجيل دي ثربانتس سابيدرا: المصدر السابق، ص573–574.

تضمنت الرواية أجواء الحب التي كانت بين السجناء المسيحيين والنساء العربيات في مدينة الجزائر، ومثالها العلاقة بين سجين مسيحي وابنة الأغا موراتو "زوريدا"، كما أورد سيرفانتس فيها تلميحات كثيرة لمختلف الشخصيات والأوضاع آنذاك، ما جعل الرواية ترتقي إلى مصاف رواياته المشهورة[1].

يلتقي الواقع بالخيال المذهل في هذه القصة، وهي عبارة عن مرجع للتجربة التي عاشها سيرفانتس عندما كان أسيرا بالجزائر، وقد كتب هذه المرحلة من حياته رغم أنها لا تعتبر سيرته الذاتية، مستعملا جملا وكلمات وتعابير من الثقافة العربية الإسلامية، ما يدل على تشبعه بكل العناصر الثقافية الخاصة بالعالم العربي، حيث في هذه القصة يسلط الضوء على حياته في مدينة الجزائر[2].

ب – رواية غالاتيا: أول أعمال سيرفانتس، في وقت كتابتها كانت تغلب نزعة الشاعرية والحب في الأوساط الإسبانية آنذاك، حاول سيرفانتس في روايته إضفاء النشاط عكس ما كان شائعا في تلك الفترة في التأليف، شخصياتها اتسمت بالواقعية وكانت مثيرة للإعجاب، ولكن نمطها وأبياتها الشعرية متوسطة، مشوهة بالصبغة المدرسية التعيسة السائدة وقتها، ومثال ذلك تحدث سيرفانتس عن الرعاة كما لو كانوا مقاعد كما كانت الأطروحات فيها طويلة مقتبسة من أبطال الحكاية التاريخيين، وكانت الأبيات الشعرية فيها متواضعة، وقد اتسمت بالمبالغة إذ أن الشمس لا تضيء إلا من النور الذي تستقيه من عيني غالاتيا، كل هذا أدى لإصدار حكم سيء عن الرواية و عن سيرفانتس نفسه، إلا أنه وسط كل هذا الإخفاق نجد أفكارا ساحرة ومشاعر حقيقية معبر عنها جيدا، متمثلة في معارك القلب.

غالاتيا رواية من ستة أجزاء، احتوت حلقات كثيرة والقليل من الأحداث[3]، ألفها سيرفانتس للتأثير على امرأة أراد أن يتزوجها، وقد نجح في مسعاه، إلا أن الرواية لم تحقق نجاحا إذ لم تكسبه مالا ولا مجدا[4]، واعتبرت تقليدا عن رواية "ديان"[5].

غالاتيا رواية رعوية–Pastoral– حول مجموعة من الرعاة الشباب بينهم علاقات معقدة من حب وصداقة وخداع، تبدأ بشكاوي "إليسيو Elicio" المرتبطة قصته بـ "إراسترو Erastro" و "غالاتيا Galatea"، و ظهور

[1] Maxime Chevalier: En lisant Cervantès, Bulletin Hispanique, t108, n°2, décembre 2006, Université Michel de Montaigne, Bordeaux3, France, p385.

[2] Fatima Zohra Chiali: Oran l'Espagnole a travers une lecture littéraire et historique de l'œuvre de Miguel Cervantès, Passerelle, v8, n°1, 2019, université Oran 2, Algérie, p7.

[3] M de Florian: Galatée roman pastoral imité de Cervantes, 3ed, imprimerie de Didot L'Aine, Paris, France, sd, p26-30.

[4] M Auger: op.cit, p396.

[5] M Auger: ibid, p398.

"ليساندرو Lisandro" الذي يروي كيف قتل "كارينو Carino" في سبيل حبه لـ: "ليونيدا Leonida" ثم تلتحق "تيوليندا Teolinda" التي تلاحق "أرتيدورو Artidoro" ، بعدها يتحول التركيز إلى النقاش بين "لينيو Lenio" و إليسيو، وتستمر حكاية تيوليندا، إلى أن تظهر أكثر الحكايات تعقيدا في الرواية، حكاية بيزنطية يرويها "سيليريو Silirio" صديق "تيمبريو Timbrio" وحبيب "نيسيدا Nisida"، الرعاة الآخرون "دارانيو Daranio" و "سيلفيريا Silveria" ينويان الزواج لكن الأمر معقد بسبب "ميرينو Mireno" الذي يحب سيلفيريا، تقابل بعدها تيوليندا أختها المفقودة " ليوناردا Leonarda" التي ترتحل مع "روساورا Rosaura" الراعية التي تبحث عن "غريسالدو Grisaldo" ثم يبدأ نقاش حول تأثير الحب بين "تيرسي Tirsi" ولينيو، مرفوقا بلقاء نيسيدا وتيمبريو وسيليريو و "بلانكا Blanca" التي يتزوجها سيليريو، لكن ليوناردا تخدع أرتيدورو في الخطوبة، ثم كل العشاق يذهبون إلى وادي السرو-نوع من الشجر- لتكريم "ميليسو Meliso" بعد هذا تغني "كاليوب Calliope" أنشودتها في مدح الشعراء الإسبان، أما عن غالاتيا فتحاول منع زواجها المدبر من راع برتغالي ويهدد إليسيو باستعمال القوة لمساندتها.

التأثير الفني للقصص المتشابكة يعكس سلسلة من الصداقات بين رعاة سيرفانتس، وهي مكون حيوي في القصص الرعوية ولبنة رئيسية في رواية غالاتيا، وحيوية وحركية قصصها في الغالب نتيجة جزع الكاتب من العلاقات المقربة بين الأفراد، لقد كانت غاية سيرفانتس جعل شخصياته تتحرك جماعيا، متعجبة ومعانية مع بعضها، بينما تقص الحكايات وتلقي الأشعار للتنفيس عن مشاعرها، وبزيادة عدد المجموعة وتشارك الشخصيات اهتمامات بعضها البعض أصبح جليا أن الصداقة هي الدافع الرئيسي من هذه الرواية[1].

ج – رواية بيرسليس وسيجيموند: وهي رواية طويلة ممتلئة بحلقات ومغامرات مذهلة، إذ يبدو أن سيرفانتس حاول فيها تقليد الرواية الإغريقية القديمة التي لا تزال محبوبة ومقدرة، حيث أن مخيلته لم تبرز وتشع قط كما برزت في هذه الرواية، التي جعل من أبطالها مثيرين للاهتمام من خلال سيرورة الأحداث العجيبة والأخطار الهائلة، والمزج بين التفاني والحب، وفخامة النمط وحقيقة اللوحات وحلقاتها ما جعلها مميزة مشهورة ومؤلفها[2].

تصنف الرواية ضمن روايات المغامرات والمحن، استجمع فيها سيرفانتس كل طاقته باعتبارها آخر أعماله، إلا أنه توفي قبل أن تنشر، حيث تكفلت زوجته بذلك، تميزت بالشغف الكبير وكانت نتيجة لوعد قطعه سيرفانتس لقرائه سنة 1613م.

[1] Dominick Finello: The Galatea-Bloom's modern critical views Miguel de Cervantes-, Chelsea house publishers, Philadelphia, United States of America, 2005, p179-180.

[2] M de Florian: op.cit, p25-26.

ضمنها سيرفانتس حوارا مذهلا، وشغفا كبيرا ومتواصلا في كامل أجزائها الأربع، التي تباينت في عدد صفحاتها حيث نجد الجزء الأول اكتمل في 150 صفحة، الجزء الثاني كتب في 146 صفحة، أما عن الجزء الثالث فهو الأكبر حجما حيث كتب في 215 صفحة في حين كان الجزء الأخير الأصغر حجما حيث كتب في 87 صفحة فقط وهذا لتعجل سيرفانتس لإنهاء هذا العمل نتيجة مرضه الشديد[1].

تدور أحداث الرواية حول الشاب"بيرسليس" والشابة"سيجيموند" اللذان ولدا في واحدة من الجزر المتجمدة في القطب الشمالي، وقد كانا من أبناء الملوك، وكانت بينهما علاقة حب، فانتحلا شخصية الأخ والأخت وحظيا بالمباركة وانطلقا مغادرين بلدهما باتجاه روما هربا من اضطهاد أخ بيرسليس المغرم بسيجيموند لهما وكذا سعيا منهما للتعرف على أساس ديانتهما-المسيحية- باعتبارها مركز الديانة، ومباركة حبهما، لكن في تلك الأوقات غالبا ما تكون البحار مملوءة بالقراصنة والأراضي عامرة باللصوص، وهنا تبدأ مغامراتهما حيث وجب علهما قطع المحيط المتجمد الشمالي ثم الأطلسي ثم المرور بالبرتغال، إسبانيا وجزء من فرنسا حتى يصلا إلى إيطاليا.

ابن ملك الدانمارك الذي وقع في حب سيجيموند، يترك مملكته وينطلق في مطاردتها، طريق مملوء بالملوك والمغامرين والحمقى الذين وقعوا في حب سيجيموند والذين يتبعونها، كما افتتن بجمالها دوق نومور، الذي مضى في مطاردتها كذلك، ما أدى لاصطدامه مع ابن ملك الدانمارك حيث حاولا قتل بعضهما، وخلال كل هذه الأحداث حمى بيرسليس سيجيموند، ولسبب أو آخر تجنبا هذه الأخطار التي تتجدد دائما، أخيرا وصلا إلى روما أين اعترت سيجيموند رغبة ملحة في تكريس نفسها للعبادة متجاهلة المشاعر الأخرى، ما أدى ببيرسليس للشعور باليأس، إلا أن سيجيموند توافق أخيرا على العودة إليه-تتزوجه-، في هذه الأثناء يموت والد بيرسليس ويتركهم دون عرش.

هذه الرواية تكتسي صبغة الشمولية-العالمية- المتحركة المتسلسلة، حيث الشخصيات والمغامرات تمر وتمضي بسرعة، و لا تحتوي إلا على شخصيتين متكاملتين وهما بيرسليس وسيجيموند، أما عن باقي الشخصيات فأغلبهم مجانين و محتالون، أوغاد وحمقى ومنافقين، والذين ينتشرون في العالم بكثرة، فهم أكثر تسلية من الناس الصادقين-لذا عمد سيرفانتس لإدخالهم في روايته-، حيث تنتمي رواية برسيليس وسيجيموند للروايات القديمة التي تكتسيها المغامرات الرائعة[2].

[1] Bénédicte Coadou: Recherches sur l'écriture de l´imaginaire dans la Galatée et le Persiles de Miguel de Cervantès(1585-1617), thèse de doctorat, directer par Ricardo Saez, Université Rennes2, France, 2012, p58-60.

[2] Anonyme: Cervantès Persilès et Sigismonde, Le Pays-Journal de L´Empire-, huitième année, n°1, mardi 1 janvier 1856, Paris, France, p1.

المبحث الثالث: نماذج من مسرحياته:

1- الحياة في الجزائر 1582م (Los Tratos de Argel): عبارة عن دراما حبكتها بسيطة، الحوار فيها متوسط الجودة، حيث في الكثير من المرات لا يكاد يكون أفضل من المدونات القديمة التي يرتكز عليها المسرح القديم، وموضوعها الوحيد هو عرض لوحة معاناة المسيحيين الأسرى في مدينة الجزائر، كما تثبته تجربة سيرفانتس الخاصة، وبالتالي كسب التعاطف في دولة قدمت عددا كبيرا من الضحايا، لم يحبذ سيرفانتس الدراما العادية إلا أنه لا يتجاهلها، وقد عوض المؤامرة التي كانت مهمة-في الدراما- بقصة حب مؤثرة وأقل واقعية، وقد كان متأكدا من النجاح التام للمسرحية باعتمادها على الحوادث العرضية.

أما فيما يخص الأحداث فالظاهر بداية أنه يقدم لنا مشهدا يضمه شخصيا مع اثنين من رفقائه في الأسر، يسخر منهم كعبيد ومسيحيين من قبل العرب، كما يقدم لنا قصة استشهاد كاهن إسباني في الجزائر، وفي موقف آخر يقدم لنا محاولة "بيدرو ألفاراز Pedro Alvarez" اللجوء إلى وهران –فكرة مستعارة- تشبه كثيرا محاولة سيرفانتس كما تعكس لوحة عن سير حياته الحقيقية، وفي مناسبات أخرى نجد مشهدين مؤلمين أو ثلاثة وهي لبيع العبيد وخاصة الأطفال الصغار منهم، لقد توزعت كل المسرحية على خمس أحداث أو أيام، لقد كتبت حسب كل مقاييس القصيدة الإسبانية و نجد فيها أصنافا من الشخصيات الدرامية المختلفة من ممثلين رئيسيين وثانويين حسب الحاجة.

رغم كل هذا الارتباك وقلة الاهتمام التي طبعتها إلا أن مسرحية "الحياة في الجزائر" تعرض مقاطع شعرية للغاية، ما يتجلى مثلا في شخصية البطل السجين المسيحي "أوريليو Aurelio " خطيب سجينة أخرى تسمى "سيلفيا Sylvia" والذي تحبه امرأة عربية تسمى "زهراء Zara" التي تعمد خادمتها "فطيمة" لاستعمال السحر بكثرة لضمان حب الأسير لسيدتها وتلبية رغباتها، وقد كانت نتيجة هذا السحر ظهور شيطان يضع تحت تصرفها الفرصة السانحة لذلك، هذان العاملان المعنويان تم جلبهما إلى المشهد وهما غير مرئيان بالنسبة لأوريليو ولكن مرئيان بالنسبة للمشاهدين، والتي تغريه بأفكار سيئة لجعله يستسلم لإغراءات الجميلة الخائنة، وعند مغادرتهم يشرح أوريليو كيف كان على وشك الاستسلام لذلك، الفكرة في هذا المقطع وفي المشهد السابق لا علاقة لهما بالدراما، على الرغم من أن سيرفانتس كرم نفسه فيها بسبب تقديمه لعوامل روحية في مسرحياته، في حين لم يخل المشهدين من الشاعرية، كما تقدم باقي المسرحية مزيجا من المشاعر الشخصية والخيال، ثائرة ضد تجاهل المبادئ الحقيقية للدراما، وضد العناصر الفظة للمسرح في وقت سيرفانتس الذي اعتبرها مسرحية، لكنها لا ترقى لتكون كذلك فهي محاولة لتشكيل سلسلة من الأحداث غير المرتبطة في عرض حي لا يتوافق مع معنى دراما[1].

[1] G Ticknor: op.cit, p152-154.

2- **الإسباني الشجاع 1590م (El Gallardo Espagnol)**: مسرحية كتبها سيرفانتس سنة 1590م، بعد إقامته في وهران لأسابيع حيث كلفه الملك بمهمة سرية، و ظهرت المسرحية سنة 1615م، تتضمن شخصية الأميرة العربية "أرلاكسا Arlaxa" التي تأمر حبيبها "علي موزال Alimuzel" فارس من قبيلة "ماليون" –قبيلة قريبة من تلمسان شهيرة بشجاعتها وحس الفروسية بين محاربيها– لأسر الدون "فيرناندو سافييدراFernando Savedra" ذو القيمة العالية، والذي وصلها صيته، هذا ما أثار امتعاض علي، لكن لتحبه أرلاكسا يجب عليه تحقيق رغبتها، وهذا ما فعله.

حيث يذهب لأسوار وهران في الوقت الذي كان فيه الإسبان يستعدون لحصار حسن باشا عليهم، يصل علي و يتحدى الدون فيرناندو إلا أن حاكم وهران يرفض خروج الدون للمبارزة جراء نزوة امرأة في حين تحتاج المدينة لكل الأشخاص للدفاع عنها، لكن الدون قرر خرق هذا الأمر حفاظا على شرفه، لم تتوفر المبارزة على أي من شروط الفروسية باعتبار أن الغاية منها كانت الشهرة والخضوع لامرأة.

أرسل الدون فيرناندو صديقه "غازمان Guzman" ليحاول إقناع علي لانتظاره لأن الدفاع عن المدينة قد يؤخره عن مواجهتهما، يظهر بعدها خائن عربي يسمى "ناصر Nacor " بالقرب من علي وهو يحب أرلاكسا كذلك فيقنع علي بالعودة لقبيلته وأن هذا فخ سيفضي لأسره من قبل الإسبان، وهذا فعله علي حيث يعود لأرلاكسا، ما يحبطها كثيرا، إذ يتهمه ناصر بالجبن والهروب من المواجهة، في هذه الأثناء يحضر فرسان كانوا متوجهون للحصار أسيرا إنه الدون فيرناندو نفسه، حيث قفز من أعلى السور فأسره الفرسان، لكنه لم يكشف عن هويته الحقيقة منتحلا اسم "خوان لوزانو Juan Lozano" الجندي الذي هرب طواعية من الجيش لأنه كان شجاعا إلا أنه لم يتقاض أجرا جيدا، وهذا في إشارة شخصية مباشرة لسيرفانتس الذي أعطاه الملك وعودا لكنه لم يحققها له بعد عودته من وهران[1].

الإسباني الشجاع الذي تدور أحداثه في مدينة وهران يروي دراما تاريخية حقيقية عن الحصار المشهور للمدينة والمرسى الكبير سنة 1563م[2] من قبل حسان باشا، مع تضمينه شخصيات حقيقية دافعت عن المكانين، وهي رغبة

[1] Fatima Zohra Chiali: op.cit, p9-10.

[2] هيئ حسان باشا لهذه الحملة لمدة 5 أشهر، وانطلق نحو الغرب من مدينة الجزائر في الخامس من شهر فيفري سنة 1563م، على رأس جيش جرار، اتخذ مستغانم قاعدة عمليات، ويوم 3 أفريل وصل أمام مدينة وهران، وجعل مركز قيادته في رأس العين، وقد استعد الإسبان للدفاع وراء حصونهم وقلاعهم، ولم يصل كل أسطول الإمداد الإسباني بسبب تعرضه لعاصفة بحرية، بدأ حسان باشا إمطار الحصون بالقنابل وصمم الإسبان على الموت في سبيل المدينة، واحتل حسان باشا حصن القديسين يوم 15 أفريل ثم تحولت جهوده نحو المرسى الكبير، كما رفض القادة الإسبان تسليم المدينة، بداية كانت المعركة في صالح الجزائريين، إذ احتلوا حصن جنوة، إلا أن وصول أسطول إمداد إسباني ضخم يوم 7 جوان 1563م قلب الموازين كما كان الجيش الجزائري منهكا فأمر حسان باشا بالانسحاب والرجوع للجزائر من أجل الاستعداد مجددا، إضافة إلى ذلك فقد انهزم أسطول الحملة الجزائري قليل العدد أمام الأسطول الإسباني الضخم، وبهذا فشلت الحملة الجزائرية أمام الثبات والنجدة الإسبانية. انظر: أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص379-383.

عميقة لدى سيرفانتس في ربط الأحداث بدقة، وهو مبدأ يكرسه كثيرا في كتاباته، كما تقدم هذه المسرحية حالتين حول وهران ، خيالية متمثلة حبكة الحب بين علي وأرلاكسا، وواقعية تمثل الدفاع الإسباني عن وهران ضد الهجمات العربية الرامية لتحرير المناطق التي يسيطر عليها الإسبان، إذ عكست المسرحية الأحداث في هذه المدينة الحدودية، فهي تعتبر وثيقة مهمة للوجود الإسباني في وهران، وتعطي معلومات تاريخية جغرافية(جبل الأسود)، اجتماعية واقتصادية عن هذه المدينة[1].

3- السلطانة العظيمة 1607م (La Gran sultana): مسرحية تدور عقدتها حول حسناء مالقية بيعت رقيقا بعد أن أسرها االقرصان في سفرها إلى وهران، توصلت إلى استهواء قلب سلطان اسطنبول وبفضل علو همتها وفلاحها وإيمانها الراسخ وحنانها وعطفها لاقى الأسرى خيرا كبيرا.

لم يستطع النقاد الذين حاولوا البحث عن أساس الحادث الذي ترتكز عليه المسرحية الزيادة عن ما جاء في الموشح الذي أدرجه سيرفانس في الفصل الثالث من مسرحيته، والحادث يظهر تاريخيا الأمر الذي يؤكده سيرفانتس في عدة مقاطع من المسرحية، وهذا ما أكده المؤرخون، كما أوضح سيرفانتس فيها أن السلطان كان متساهلا مع هذه المرأة بخصوص ديانتها خلافا لما كان متعارفا آنذاك أن العرب والأتراك يلزمون زوجاتهم اعتناق الإسلام.

يظهر من تركيب المسرحية أنها من المسرحيات التي تنتمي إلى المرحلة الأخيرة من نشاط المؤلف المسرحي، وحسب الموشح المذكور أعلاه يقع التلميح إلى سنة 1600م كوقت مضى، إضافة لهذا ولدى الكلام عن سفير العجم يقول في إحدى المقطوعات: «يدخل سفير بلباس الذين يمرون من هنا...» والواقع أنه سنة 1601م دخل رسميا مبعوثو شاه العجم إلى بلد الوليد، وتدل تلك المقطوعة أن سيرفانتس كان في ذلك الحين في بلد الوليد حيث ألف هذه المسرحية.

فنيا تعتبر مسرحية السلطانة العظيمة من أفضل مسرحيات سيرفانتس من حيث الشاعرية ووصف الطبائع، يراعي فيها وحدتي العقدة والمكان، إلا أنه لا يراعي وحدة الزمان، فصولها موزعة توزيعا حسنا، كلها تنتهي في نقاط تثير الاهتمام والتشويق، وذات مادة جوهرية تتحلى وتتقيد بالوحدات الصغيرة داخل نطاق الوحدة الكبرى التي تسيرها إليها وتجعل العقد تدور حولها.أما عن أكبر عيوب المسرحية غياب سرعة المحاورة، حيث أن المحاورين منشدي أشعار وصفية غنائية، ما يؤدي لاستنزاف الأفكار وعرضها عرضا لا يبقي على شيء من شكلها وألوانها[2].

[1] Ahmed Abi-Ayad: Oran l'Espagne et Cervantes, Insaniyat, n°23-24, juin 2004, Centre de recherche en anthropologie social et culturelle, Oran, Algérie , p 226-227.

[2] نجيب أبو ملهم و موسى عبود: المرجع السابق، ص210-212.

4- حمامات الجزائر1615م (Los Baños de Argel) : هذه المسرحية لم تلعب قط، أحداثها تدور حول إنزال تركي في السواحل الإسبانية، بقيادة القبطان الجزائري كورالي والمرتد الإسباني يوسف، الذين هاجما البلدة الصغيرة "مويوريدو" وقد كان يوسف دليل الحملة.

رغم أن البلدة كانت محصنة إلا أن المهاجمين ينتصرون على الحراس بسهولة، حيث يفتعلون حريقا، حيث يخرج السكان من منازلهم، ثم يتم أسرهم، ويظهر أب مع ابنيه صارخا "الأتراك" يليه ظهور خادم الكنيسة يطلق الإنذار، "دون فيرنان Don Fernan" النبيل يشرع في البحث عن زوجته "كونستانزا Constanza "[1].

في الميناء تم استقبال العائدين من الحملة من قبل الحاكم وجماعة من السكان وحسن المرتد الصالح، لقد أحضر كورالي 120 أسيرا، ولقد كان يوسف يتفاخر بالهجوم وإراقة الدماء في بلده، و نرى الأب غير المحظوظ وابنيه، وهم أقرباء يوسف، ثم خادم الكنيسة و دون فيرنان، إلا أن كورالي أخفى كونستانزا.

احتفظ الحاكم بالولدين، ثم نشب صراع بين حسن المرتد الصالح-الذي كان ساخطا على وضعية الأسرى- ويوسف المرتد الفاسد نجم عنه وفاة يوسف واعتقال حسن-حيث أن يوسف قال عليه أنه مسيحي قبل أن يموت- وهذا ما اعترف به حسن وبيده صليب ما أدى لقتله على يد القائد.

بعدها تبدأ المؤامرة الدرامية، إذ أن كورالي احتفظ بكونستانزا مع حريمه وكذا اتخذ من زوجها دون فيرنان عبدا والذي أعجبت به عليمة زوجة كورالي، كما كان الأخير معجبا بكونستانزا، لقد كانت بمثابة لعبة ممتعة لسيرفانتس، حيث اهتم دون فيرنان بزوجة كورالي في حين وعدت كونستانزا عليمة بالمثل، ومثل حدث في مسرحية الحياة في الجزائر.

تتوالى الأحداث بالنسبة للأسرى كما تظهر شخصيات جديدة "كدون لوب Don Lope" ممثلا بسيرفانتس و حبيبته زهراء ابنة التاجر الغني، وتعكس المسرحية معاناتهم في السجون و سوء معاملتهم من قبل الحكام والعامة، إلى غاية وصول الآباء المفتدين وتحريرهم وانطلاقهم إلى إسبانيا.

يخاطب سرفانتس الجمهور باسم "دون لوب" قائلا: «لم آت بهذه القصة من مخيلتي، إنها واقعية، إنها حكاية حب، ذكرى حلوة موجودة في مدينة الجزائر...لا يزال بإمكاننا رؤية النافذة والبستان»[2].

[1] C.B Dumaine: op.cit, p104-105.

[2] C.B Dumaine: ibid, p109-127.

- **مدينة الجزائر، الأسر والأسرى في أعمال سيرفانتس:** يقدم سيرفانتس مدينة الجزائر في أعماله كمدينة عالمية، مهتما بمختلف المجتمعات الدينية فيها: المسلمين ومن جهة أخرى المسيحيين واليهود الذين كانوا أسرى يتمتعون بالتسامح الإسلامي، إذ أن أسرهم لم يمنع ممارسة معتقداتهم الدينية من قداس يوم الأحد والأعياد الدينية بالنسبة للمسيحيين، وكذا احترام قدسية يوم السبت عند اليهود، كل هذا أبهر سيرفانتس الأسير، ما يظهر جليا في واحد من شخصيات مسرحية "الحياة في الجزائر" و الذي قال شعرا عن آسريه مصرحا بحريته الدينية.

هيمنت مدينة الجزائر على أعمال سيرفانتس نظرا لأهميتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية الكبيرة، وهذا بشهادته حيث اعتبرها قلعة متوسطية تؤوي العديد من أسرى ضفتيه، وقد كانت المدينة مسكن العديد من الشخصيات العسكرية التي يعرفها شخصيا و وظفها بالتسلسل في أعماله، ومنها علج علي بدور القائد البحري التركي، ودالي مامي الذي أسر سيرفانتس، والآغا موراتو والعديد من الشخصيات الأخرى.

عكست شخصيات–تركية، مسيحية، محلية– في مسرحيات سيرفانتس عالمية مدينة الجزائر، كما نقل نشاط الموانئ الجزائرية ذاكرا وجود سفن بضائع مسيحية ترسو في ميناء مدينة الجزائر وعلى متنها بنادقة و كتلان.

في مسرحية "الحياة في الجزائر" التي بنيت على أساس تاريخي حقيقي تضمن مؤامرات حب متشابكة، كان أبطالها امرأة عربية مع أسير مسيحي وكذا رجل عربي مع أسيرة مسيحية، هناك شخصية تسمى سافيدرا–لقب سيرفانتس– والتي نقلت ذكرياته في الأسر ومدى قسوتها، كما أنه أثنى فيها على القبطان دالي مامي آسره قائلا: «يبدو مستقيما في موقفه».

أشار سيرفانتس في بعض أعماله إلى اللغة الفرنسية، والتي يتكلمها كل سكان ضفتي المتوسط حسبه، كما أنه استعمل بعض التعابير التركية–بريقدي– وكذا العربية –السلطان– وأسماء أشخاص عربية –علي، يوسف، فاطمة...–.

عالج سيرفانتس في مسرحياته موضوعين متضادين من إقامته في الجزائر، الأول تجربته المؤلمة التي عاشها هو وباقي الأسرى في سجون الجزائر بمشاهد درامية تضمنت أسواق الأسرى و معاملتهم كحيوانات، من فصل الآباء عن أبنائهم مظهرا تعاطفه الشديد مع الأطفال الأسرى داعيا السلطات الإسبانية تحرير الأسرى بالجزائر، هادفا لتحريك الرأي العام الإسباني و انتباه الكنيسة والملك لأوضاع هؤلاء داعيا لاحتلال الجزائر.

كما قدم سيرفانتس في أعماله معلومات حول أصناف الأسرى وكيفية بيعهم وقابلية افتدائهم، ذاكرا السفينة الإسبانية التي وصلت لميناء الجزائر لافتدائه هو وأسرى آخرين ومدى سعادتهم الكبيرة، أما الموضوع الثاني فقد كان علاقات الحب بين المسيحيات والمسلمين وكذا بين المسلمات والمسيحيين، ومنها قصته المتشابكة مع الخيال وعلاقته مع[1]

[1] Ahmed Abi- ayad : Captifs et Captivité dans les œuvres de M. de Cervantes (Alger au XVI siècle), projet PNR, Centre de recherche en anthropologie social et culturelle, Oran, Algérie, 2005, p21-25.

"زريدة" التي تخلت عن والدها للذهاب معه لإسبانيا، وغيرها من القصص، وقد أراد سيرفانتس تبيان الجو الشاعري الذي عاشه بعض الأسرى في الجزائر ما جعلهم لا يقاومون هذه العلاقات.

زودنا سيرفانتس في أعماله بالعديد من المعلومات الطبوغرافية عن مدينة الجزائر، بجاية، شرشال، مستغانم، وهران وفي إشارته لمحاولة هروبه الرابعة باتجاه وهران ذكر وادي أزفران وشرشال و سهل وهران.

تشكل المعلومات التي زودنا بها سيرفانتس من خلال أسره وإقامته بالجزائر وثيقة قيمة لدراسة وفهم مجتمع مدينة الجزائر في القرن السادس عشر، وكذا تعطينا فكرة حول الأسر والأسرى واللغات واللباس، وهذا رغم أنها لم تكن في صالح الجزائر بقدر ما كانت لجلب اهتمام إسبانيا الكاثوليكية للوضعية المزرية للأسرى المسيحيين في مدينة الجزائر، كما أنه مقابل عدم التسامح الإسباني اتجاه المسلمين، أكد سيرفانتس على التسامح الديني مع الأسرى في مدينة الجزائر ما جعلها حسبه تكتسي صبغة العالمية[1].

لقد كان لموضوع الأسر مكانة هامة في العمل الروائي السرفانتي، حيث عالجه تقريبا في غالب أعماله المسرحية، ومنها السلطانة العظيمة وحمامات الجزائر التي ظهرت فيها الإيديولوجية الوطنية والمسيحية.ولم تحظ دراما المأسورين بأهمية بسبب النية التي تدعمها وإنما بسبب أحداثها وشخصياتها، حيث تمكن سيرفانتس من إحداث موازنة بين نظريته المسرحية والقوانين الداخلية للكوميديا الجديدة، فاستطاع تناوب المشاهد المأساوية مع الكوميدية[2].

إذن فأعمال ميغيل دي سيرفانتس قد تنوعت بين الروايات و المسرحيات فكان أشهرها رواية دون كيشوت و التي جعلت من سيرفانتس أديبا ذو شهرة عالمية في مجال الأدب و الرواية، كما جسد هذا الأخير من خلال أعماله فترة أسره في الجزائر حيث قدم فيها عدة معلومات حول هذا البلد و الشخصيات التي كانت تعيش فيه في ذلك الزمان، فعلى الرغم من الطابع الأدبي الذي اتسمت بها عمال سرفانتس إلا أنها تعتبر جزء لا يمكن الاستغناء عنه في دراسة الفترة العثمانية.

[1] Ahmed Abi- ayad: Captifs et Captivité dans les œuvres de M. de Cervantes (Alger au XVI siècle), op.cit, p25-28.

[2] فرانشيسكو رويث رامون: المرجع السابق، ص 139-140.

خاتمة

خـاتــمة:

تناولنا في دراستنا هذه المعنونة بالأعمال الأدبية للأسرى في الجزائر خلال العهد العثماني " دي سيرفانتس نموذجا" مجموعة من النقاط و القضايا، حيث تطرقنا إلى أهم الأعمال و المؤلفات التي قدمها الأجانب على اختلاف وظائفهم و مكانتهم العلمية حول إيالة الجزائر خلال العهد العثماني، كما تناولنا ظاهرة الأسر و الأسرى بالجزائر خلال هذه الفترة، هذا إضافة إلى دراسة شخصية ميغيل دي سيرفانتس و فترة أسره بالجزائر، كما قمنا بعرض أهم أعمال و مؤلفات هذا الأخير و التي كانت لها علاقة مع فترة أسره، فخرجنا بمجموعة من النتائج هي كالآتي:

- اختلفت و تنوعت كتابات الأجانب حول الجزائر خلال العهد العثماني، حيث نجد كتابات القناصل و الدبلوماسيين و مؤلفات الرحالة و رجال الدين، و كذلك أعمال الأسرى.
- ركز الأجانب في كتاباتهم على مواضيع حساسة حول الجزائر خلال العهد العثماني ومنها ظاهرة الأسر كمحاولة لإيجاد ذريعة لافتعال المشاكل معها وبالتالي إعطاء الشرعية لمحاولات غزوها.
- تطرق الأجانب في كتاباتهم حول الجزائر في العهد العثماني إلى العديد من النقاط، وخاصة منها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكانت كمحاولة منهم لفهم إيالة الجزائر بصفة عامة، في سبيل خدمة بلدانهم.
- حذرت الكتابات الأجنبية من قوة الجزائر في العهد العثماني، ودعت في أغلب الأحيان إلى غزوها ومنها دعوة هايدو لسلطات بلده لاتخاذ الأسرى ذريعة لغزو الجزائر، وكذا دعوة وليام شالر للدول الأوروبية لغزو الجزائر باعتبارها تشكل خطرا عليهم.
- كانت كتابات الأجانب حول الجزائر في العهد العثماني بمثابة تقارير ترفع إلى بلدانهم، وكأنها نوع من التجسس في سبيل خدمة أغراض هذه الدول، وخاصة الكتابات التي تطرقت للجانب السياسي و العسكري و الطوبوغرافي.
- استخدمت معظم كتابات الأجانب حول الجزائر في العهد العثماني كمنطلقات لرسم خطط وتنفيذها لغزو الجزائر ومنها مذكرات وليام شالر و مذكرات تيدنا.
- تعتبر المادة العلمية التي أنتجها الأجانب خلال العهد العثماني مصدرا لا يمكن الاستغناء عنه لدراسة هذه الفترة رغم بعض الانتقادات و النقائص التي اعترتها، ما يستدعي الحذر أثناء التعاطي معها.
- ارتبطت عمليات الأسر في البحر الأبيض المتوسط بالصراع الديني و الحضاري الذي كان هذا البحر مسرحا له

- تعود بدايات الأسر في الجزائر إلى بدايات العهد العثماني ثم تواصلت في ظل الصراع الذي جمع الجزائر بالقوى الأوروبية حيث تعددت طرق الأسر و تنوعت.
- اختلفت أعداد و أسعار الأسرى من فترة زمنية لأخرى كما تعددت جنسياتهم و أصنافهم و مكانتهم الاجتماعية.
- صورت بعض المصادر الأجنبية الأسرى المسيحيين في الجزائر خلال العهد العثماني كالعبيد، لكن الواقع أنهم عوملوا بطريقة إنسانية فرضها الدين الإسلامي، وهذا بشهادة بعض الأجانب كوليام شالر و الرحالة الألماني هابنسترايت.
- انتشرت في الجزائر عمليات افتداء الأسرى حيث اختلف القائمون بها باختلاف الطرق المتبعة فيها.
- يعتبر ميغيل دي سيرفانتس من أشهر الشخصيات الإسبانية التي وقعت بالأسر في الجزائر.
- عاش ميغيل شبابه في الترحال من مدينة إلى أخرى بحثا عن حياة أفضل، أين تلقى مختلف العلوم خلال هذه الفترة خاصة ما تعلق بالأدب و المسرح.
- غادر سيرفانتس إسبانيا نحو ايطاليا أين التحق بالجيش و اقتحم عالم البحر ليشارك في معركة ليبانتو الشهيرة التي قاتل فيها بشجاعة رغم إصابته البليغة.
- وقع سيرفانتس في الأسر سنة 1570 و اقتيد إلى مدينة الجزائر التي قضى فيها حوالي 5 سنوات في هذه الوضعية
- قضى ميغيل فترة أسره في الكتابة و التخطيط لمحاولات الفرار، و قد أقدم على القيام بالعديد منها إلا أن أنها فشلت و استمر بذلك إلى غاية افتدائه سنة 1580.
- بعد تحرير سيرفانتس انتقل إلى إسبانيا و منها إلى البرتغال أين عاش هناك عدة أحداث إلى غاية وفاته.
- خلف ميغيل دي سيرفانتس عديد الأعمال الأدبية التي لاقت شهرة عالمية.
- تعتبر رواية دون كيشوت أشهر أعمال سيرفانتس حيث أن هذه الأخيرة أحدثت ثورة في مجال الرواية الأدبية و قد صور فيها سيرفانتس حياته و جسد فيها عديد الشخصيات التي عرفها خلال اسره، حيث قدم معلومات جد مفيدة جعلت من روايته مصدرا تاريخيا من مصادر تاريخ الجزائر الحديث لكن وجب علينا الحذر في استقاء المعلومات منه نظرا لبعض مواقف سيرفانتس الخالية من الموضوعية .
- رواية الأسير فصل من فصول رواية دون كيشوت خصصها الكاتب لتصوير فترة أسره في الجزائر وكل ما مر به و الملاحظ عليها نوع من المبالغة في نقل الأحداث التاريخية وطغيان الذاتية على الموضوعية.
- كانت رواية غالاتيا أول أعمال سيرفانتس إلا أنها لم تلقى نجاحا كبيرا في الأوساط الأدبية.

- تعتبر رواية بيرسليس و سيجيموند آخر روايات سيرفانتس و قد وضع فيها كامل خبرته الأدبية إلا انه توفي قبل نشرها.
- إلى جانب الروايات ألف ميغيل العديد من المسرحيات أهمها: الحياة في الجزائر، حمامات الجزائر، السلطانة العظيمة و الإسباني الشجاع وقد كانت كلها تاريخية الصبغة، إلا أنه لم يتحرى الموضوعية التامة فيها في محاولة نقل الوقائع، حيث يظهر حقده وتعصبه ضد مختلف الشخصيات الجزائرية التي تصادف معها، ومنها وصف الأعلاج بالمرتدين والمبالغة في تشويه الجانب الأخلاقي للجزائر في العهد العثماني.
- كانت مؤلفات سيرفانتس انعكاسات لحياته الشخصية، وخاصة ما يخص المغامرات التي خاضها و كذا فترة أسره بالجزائر، ما يجعلها بمثابة سيرة ذاتية تؤرخ له وللفترة أسره لكن بتحفظ، إذ وجب تحري دقة وموضوعية ما ورد فيها.
- يمكن تمييز كتابات سيرفانتس حول الجزائر خلال العهد العثماني عن باقي كتابات الأجانب من خلال طبيعتها، إذ أنه نقل التاريخ بصبغة أدبية روائية مقتصرة على ما عايشه فقط، في حين كانت باقي الكتابات بمثابة تقارير مخطط لها هادفة لخدمة أغراض الدول الأجنبية آنذاك ومثالها كتاب طوبوغرافيا تاريخ الجزائر العام لهايدو.

تم بحمد الله

الملاحق

الملحق رقم: 01 نشرة دعائية لجمع الأموال الموجهة لمفاداة الأسرى[1]

«نحن **بيرتراند باتي ست روني غيسكلان (Bertrand Baptiste René Guesclin)** قس مستشار، مرشد تابع للملك، عميد كلية **انديليس (Andélys)**، ممثل عام للسيد كلي الرفعة، جلي الاحترام أسقف **روين(Rouen)** ،كبير أساقفة نورماندي، والقاضي الأسقفي لبانتواز وفيكسان الفرنسي، وبعد رؤية الرسائل الواردة من طرف جلالته الملك، والتي تؤكد ما ورد في رسائل سابقيه من الملوك، لتنظيم الثالوث الأقدس، الذي سيذهب أعضاؤه إلى بلاد المغرب لمفاداة إخواننا، الذين وقعوا في الأَسر والعبودية، أين يحيون حياة محفوفة بالمخاطر بفعل قسوة المغاربة ونحن نسمح بإصدار هذه الرسائل، التي تسمح بجمع الأموال بأن تقوم بذلك داخل المملكة من أجل مفاداة الأسرى، ونرخِّص القيام بجمع الأموال في مدينتي بانتواز وفيكسان الفرنسي، بعد أن رجونا السادة الكهان ليقوموا بحث المؤمنين من خلال الموعظة، التي تقام يوم الأحد على إعطاء الصدقات، التي تسلم بعد ذلك إلى السادة العمداء الريفيين في مقاطعاتهم، والذين سيلمونها بعد ذلك إلى السيد **دي اوفري (d'Auvray)** كاتبنا لتقدم بعد ذلك إلى الأب المحترم **جاك دوفو(Jacque Duvaux)** القس التابع للتنظيم المذكور المكلف بتحصيل هذه الأموال.

كتبت في بانتواز، ومن توقيع السيد الأسقف، في يوم8مارس1731م».

ب.دي غيسكلان.

الوكيل العام والقاضي الأسقفي

من طرف السيد الوكيل الكبير دي اوفري

[1] عائشة محمة: المرجع السابق، ص173.

الملحق رقم: 02 منحنى بياني يوضح تطور عدد الأسرى بالجزائر خلال العهد العثماني من 1578إلى1830م[1]

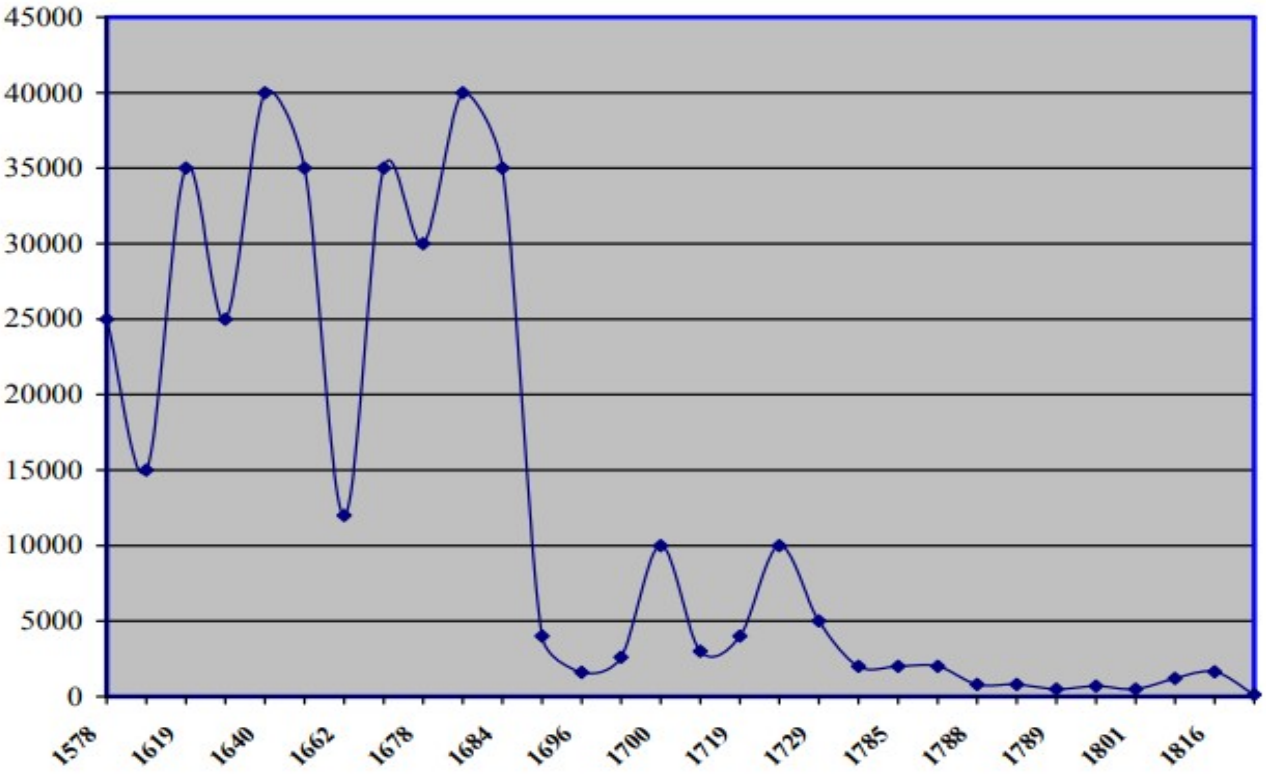

الملحق رقم: 03 أعمدة بيانية توضح تطور عدد الأسرى بالجزائر خلال القرنين 16 و17م[2]

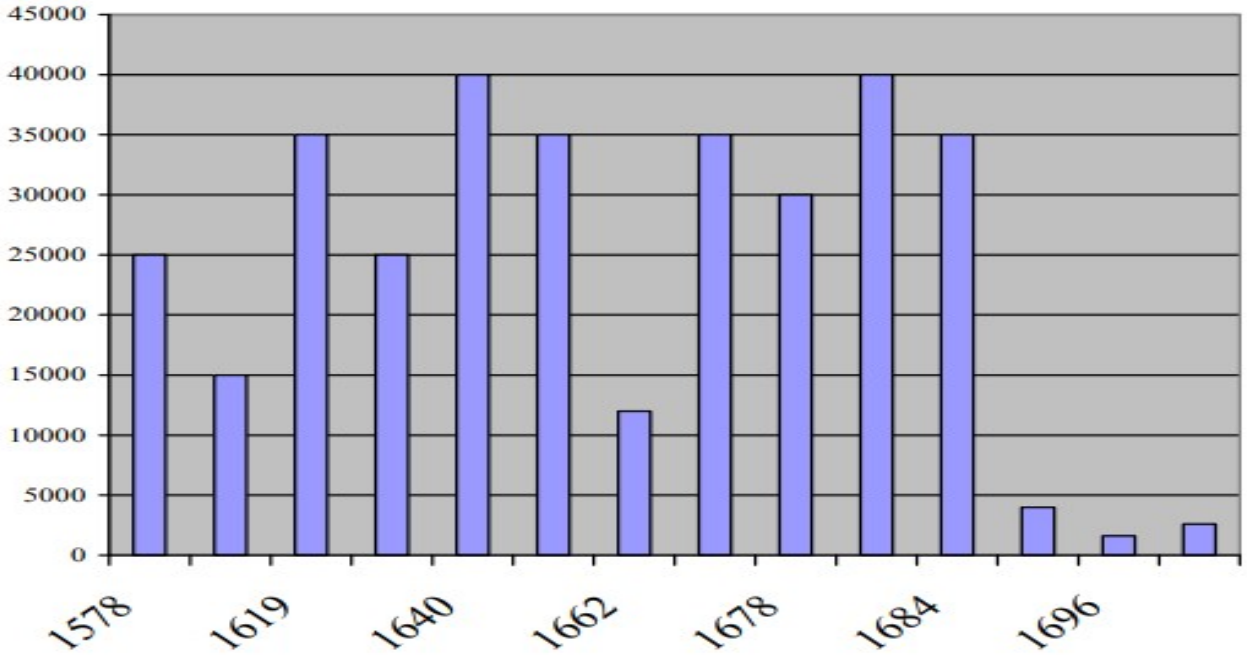

[1] بلقاسم قرباش: الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات، المرجع السابق، ص304.

[2] بلقاسم قرباش: المرجع نفسه، ص305.

الملحق رقم: **04** أعمدة بيانية توضح تطور عدد الأسرى بالجزائر خلال القرنين 18 و19م[1]

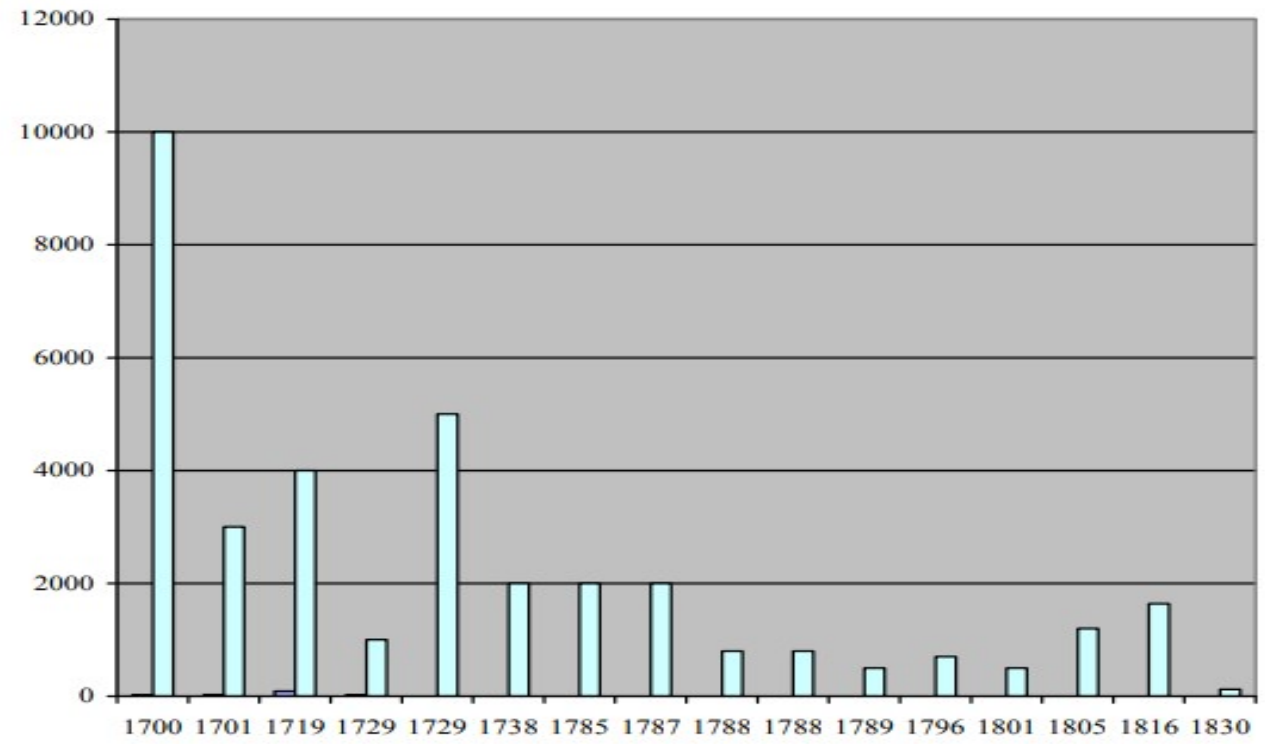

الملحق رقم: 05 الكهف الذي لجأ إليه سيرفانتس في محاولته للفرار –منطقة الحامة–[2]

[1] بلقاسم قرباش: الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات، المرجع السابق، ص306.

[2] https://www.google.com/url?sa=i&url=https%3A%2F%2Fwww.tripadvisor.fr%2FShowUserReviews-g293718-d3462029-r319734844-Grotte_de_Cervantes-Algiers_Algiers_Province.html&psig=AOvVaw3CYym_asdVaBsX-iJuWTI6&ust=1622563552037000&source=images&cd=vfe&ved=0CAMQjB1qFwoTCLiIj--m9PACFQAAAAAdAAAAABAP تاريخ الاطلاع 2021/05/28، على الساعة 10:00

الملحق رقم:06 ميغيل دي سيرفانتس سافيدرا[1]

[1] Lucien Biart: op.cit, p.4

قائمة المصادر

و المراجع

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

– باللغة العربية

1. **سابيدرا ميجيل دي ثربانتس**: الشريف العبقري دون كيخوتي دي لامانشا الشهير بين العرب باسم "دون كيشوت"، تر سليمان العطار، ج1، ط2، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، 2014.
2. **شالر وليام**: مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816–1824، تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1982.
3. **كاثكارت جيمس ليندر**: مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب، ترجمة وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1982م.
4. **هابنسترايت ج أو**: رحلة العالم الألماني ج أو هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1145هـ–1732م، ترجمة وتقديم وتعليق ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2007م.

- باللغة الأجنبية:

1. **Ackerman Paul**: dictionnaire biographique universel et pittoresque, t4, Aimé André libraire éditeur, Paris, France, 1834.
2. **Baumstark Reinhold**: une excursion en Espagne, tr M le Baron de Lamezan, Tolra libraire éditeur, Paris, France, 1872.
3. **Biart Lucien**: Cervantès, Lecène Oudin et Cie éditeurs, Paris, France, 1890.
4. **Cervantès**: Le captif-histoire extraite de Don Quichotte-, tr J Merson, librairie de L Hachette et Cie, Paris, France, 1864
5. **Chasles Emile**: Michel De Cervantès, libraire académique, Paris, France, 1866
6. **De Grammont H–D**: Histoire d´Alger sous la domination Turque, Ernest Leroux Editeur, Paris, France, 1887.
7. **De Paradis Venture**: Alger au XVIIe siècle, éd E Fagnan, typographie Adolphe Jourdan, Alger, Algérie, 1898.

8. **De Paradis Venture**: grammaire et dictionnaire abrégés de la langue berbère, rv par P Amédée Daubert, imprimerie royale, Paris, France, 1844.
9. **Dumaine C.B**: Essai sur la vie et les œuvres de Cervantès, Alphonse Lemerre éditeur, Paris, France, 1896.
10. **Gray Jean**: Bibliographie de ouvrages relatifs a l'Afrique et a l'Arabie, ed Vincent Bona, Turin, Italie, 1875.
11. **Hoefer M**: Nouvelle Biographie général depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours, t23, Firmin Didot frères fils et Cie éditeurs, Paris, France, sd.
12. **Laugier De Tassy**: Histoire du royenne d'Alger, préf Noel Laveau et André Nouschi, édition Loysel, Paris, France, 1992.
13. **Lefranc Pierre**: le livre d´or des peuples Plutarque universel, Henri Willems et Cie éditeurs, Paris, France, sd.
14. **Shaw DR**: voyage dans la régence d'Alger, tr J Macarthy, Marlin éditeur, Paris, France, 1830.
15. **Shaw Thomas**: travels or observations relating to severel parts of barbary and the levent, Oxford Theater, Oxford, United Kingdom, 1738.
16. **Shaw Thomas**: Voyage de M Shaw M D dans plusieurs provinces de la barbarie et du levant, tr anonyme, chez Jean Neaulme, Amsterdam, Hollande, 1743.
17. **Ticknor G**: Histoire de la Littérature Espagnole, tr JG Magnabal, Hachette et Cie libraires éditeur, Paris, France, 1870.

المراجع:

– باللغة العربية

1. **التر عزيز سامح:** الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، ج1، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1989م.
2. **ديورانت ول وايريل:** الحضارة، تر فؤاد أندراوس وآخرون، مر علي أدهم، ج2، م7، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم–تونس–ودار لجيل–بيروت–، 1992م.

3. **الرملي محسن**: الأدب الإسباني في عصره الذهبي، ط1، دار المدى، بغداد، العراق، 2015م.

4. **سبنسر وليم**: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007م.

5. **كامب جان**: الأدب الإسباني، تر بهيج شعبان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1956م.

6. **مروش المنور**: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، ج1، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009م.

7. **وولف جون ب**: الجزائر وأوروبا 1500-1830، ترجمة أبو القاسم سعد الله، ط خ، دار الرائد وعالم المعرفة، الجزائر، 2000م.

– باللغة الأجنبية:

1. **Babelon Jean**: Cervantès notice sur sa vie et son œuvre, maison Charavay, Paris, France, 1947.
2. **De Florian M**: Galatée roman pastoral imité de Cervantès, 3ed, imprimerie de Didot L'Aine, Paris, France, sd.
3. **Finello Dominick**: The Galatea-Bloom's modern critical views Miguel de Cervantes-, Chelsea house publishers, Philadelphia, USA, 2005
4. **Recouly Raymond**: le chasseur de nuées ou la vie de Cervantès, les éditions de France, Paris, France, 1938.
5. **Walker Audrey**: James L Cathcart papers, Library of Congress, Washington, United States of America, 2003.

الرسائل الجامعية:

– باللغة العربية:

1. **بن جديد هدى**: دون كيشوت في الرواية الجزائرية-دراسة مقارنة في نماذج-، مذكرة ماجستير، إش نظيرة الكنز، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، 2011-2012م.
2. **خشمون حفيظة**: مهام مفتديي الأسرى والتزاماتهم الاجتماعية في مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية، مذكرة ماجستير، إشراف كمال فيلالي، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2006-2007م.

3. **رزوق عثمان:** حماية الأسرى بين الشريعة و اتفاقية جنيف، مذكرة ماستر، إشراف كينة مُحَّد لطفي، جامعة حمة لخضر- الوادي-، السنة الجامعية 2016-2017م.
4. **بن عتو حمدون:** الصورة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للجزائر خلال العهد العثماني 1518-1830 من خلال كتب الرحالة والجواسيس ورجال الدين –الكتابات الفرنسية والإسبانية نموذجا-، أطروحة دكتوراه، إش حنيفي هلايلي، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2016-2017م.
5. **عطلي مُحَّد الأمين:** نشاط البحرية الجزائرية في القرن السابع عشر وأثره في العلاقات الجزائرية الفرنسية، مذكرة ماجستير، إشراف عمار بن خروف، المركز الجامعي بغرداية، الجزائر، 2011-2012م.
6. **قرباش بلقاسم:** الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات 1671-1830، أطروحة دكتوراه، إش ودان بوغفالة، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، الجزائر، 2015-2016م.
7. **محمة عائشة:** الأسرى الأوروبيون في مدينة الجزائر ودورهم في العلاقات بين الجزائر ودول الحوض الغربي للمتوسط خلال القرنين السادس والسابع عشر ميلادي، مذكرة ماجستير، إشراف عمار بن خروف، المركز الجامعي بغرداية، الجزائر، 2011-2012م.

– باللغة الأجنبية:

1. **Coadou Bénédicte**: Recherches sur l'écriture de l´imaginaire dans la Galatée et le Persiles de Miguel de Cervantès(1585-1617), thèse de doctorat, directer par Ricardo Saez, Université Rennes2, France, 2012
2. **Daddi Addoun Yacine**: L'Abolition de l'esclavage en Algérie 1816-1871, thèse de doctorat , directer par Paul E Lovejoy, York University, Ontario, Canada, 2010.

المجلات و الجرائد:

–باللغة العربية

1. **أميلي حسن:** تاريخ باربارية وقراصنتها للراهب الفرانسيسكاني بيير دان، مجلة المناهل، ع55، 1 جوان 1997، وزارة الشؤون الثقافية، المملكة المغربية.
2. **آيت حبوش حميد:** أهمية المصادر الأوروبية في كتابة تاريخ الجزائر، مجلة الحوار المتوسطي، مج2، ع1، 3 أكتوبر 2010، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر.

3. **بن حادة مصطفى**: نظرة بعض القناصل الأمريكيين في العلاقات الجزائرية الفرنسية في العهد العثماني، مجلة الخلدونية، مج9، ع1، 1 جوان 2016، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر.

4. **دباب بومدين**: المهام السرية لمفتدي الأسرى المسيحيين بالجزائر خلال العهد العثماني، مجلة آفاق فكرية، مج4، ع8، مارس 2018م، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر.

5. **سامي الاستانبولي وفاء**: صورة العرب والمسلمين في رواية دون كيخوته، مجلة حوليات التراث، ع 11، 2011م، جامعة مستغانم، الجزائر.

6. **سعد الله أبو القاسم**: نظرة الأمريكيين للتاريخ الجزائري، مجلة الدراسات التاريخية، مج 3، ع2، 1 أوت 1988م، جامعة الجزائر2، ، الجزائر.

7. **سعيود إبراهيم**: جهود الكنيسة البابوية في تحرير الأسرى الأوروبيين في الجزائر خلال العهد العثماني (مقاربة تاريخية)، مجلة الحوار المتوسطي، ع 15-16، مارس 2017م، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر.

8. **شرفه حسين**: هدي النبي صلى الله عليه و سلم في التعامل مع الأسرى، مجلة الحقوق و العلوم السياسية، ع 08، ج 01، جوان 2017م، جامعة عباس لغرور، خنشلة، الجزائر.

9. **عميراوي احميده**: مذكرات تيدنا مصدر نادر في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، مج 19، ع1، 15 فيفري 2004م، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر.

10. **فكاير عبد القادر**: دور الأسطول الجزائري في معركة ليبانتو 1571، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، ع 9، ديسمبر 2014م، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر ، لجزائر.

11. **المصمودي وفاء**: ميكيل دي ثربانتس والصراع الإسلامي المسيحي بالبحر الأبيض المتوسط خلال القرن السادس عشر، مجلة مدارات تاريخية، مج 1، ع1، مارس 2019م، مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات، الجزائر.

12. **هلايلي حنيفي**: القرصنة وشروط افتداء الأسرى الإسبان في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ع 4،2003م، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر.

-باللغة الأجنبية:

1. **Abi- ayad Ahmed**: Captifs et Captivité dans les œuvres de M. de Cervantes (Alger au XVI siècle), projet PNR, Centre de recherche en anthropologie social et culturelle, Oran, Algérie, 2005
2. **Abi-Ayad Ahmed**: Oran l'Espagne et Cervantes, Insaniyat, n°23-24, juin 2004, Centre de recherche en anthropologie social et culturelle, Oran, Algérie
3. **Anonyme**: Cervantès Persilès et Sigismonde, Le Pays-Journal de L´Empire-, huitième année, n°1, mardi 1 janvier 1856, Paris, France.
4. **Bensaadi Fayçal**: Cervantès Captif à Alger, Synergies Algérie, n°1, 2007, ed Gerflint, France.
5. **Chevalier Maxime**: En lisant Cervantès, Bulletin Hispanique, t108, n°2, décembre 2006, Université Michel de Montaigne, Bordeaux3, France
6. **Chiali Fatima Zohra**: Oran l´Espagnole a travers une lecture littéraire et historique de l´œuvre de Miguel Cervantès, Passerelle, v8, n°1, 2019, université Oran 2, Algérie.
7. **De Grammont H D**: un manuscrit du Père Dan, revue Africaine, v27, n°157, janvier- février 1883, Adolphe Jourdan libraire éditeur, Alger, Algérie,.
8. **Emrit Marcel**: les aventures de Thedenat-esclave et ministre d'un bey d'Afrique, revue Africaine, v92, société historique Algérienne, Alger, Algérie, 1948.
9. **Frémeaux Jacque** : Laugier de tassy-Histoire du royenne d'Alger-, revue Française d'histoire d'outre mer, t81, n°302, 1er trimestre 1994, Société Française d'histoire des outres-mers, Paris, France.
10. **Gheziel Abla**: Captifs et captivité dans la régence d´Alger (XVIIe- début XIXe siècle), Cahiers de la Méditerranée, n°87, 15/12/2013, Centre de la Méditerranée moderne et contemporaine, France.

11. **Le Roy Christian**: Une excursion à Leptis Magna en 1732, Bulletin de correspondance hellénique, v100, n°1, 1976, l'école Française d'Athènes, Athéna, Grèce.
12. **Panzac Daniel**: Les esclaves et leur rançons chez les barbaresque (fin xviii-début xix siècle), Cahiers de la Méditerranée, n°65, 15/12/2002, Centre de la Méditerranée moderne et contemporaine, France, 2002.
13. **Terki-Hassaine Ismet**: historiographie espagnole moderne sur l´Algérie ottomane, turkiye Arastirmalari literatur Dergisi, cilt8, sayi15, 2010, Bilim ve Sanat Vakfi, turkiye.
14. **Thomson Ann**: Venture de paradis-Tunis et Alger au XVIIIe siècle-, Le protestantisme français, revue dix-huitième siècle, n°17, 1985, la Société française d'étude du XVIIIe siècle, France.
15. **Xavier Yacono**: Venture de paradis-Tunis et Alger au XVIIIe siècle-, revue Française d'histoire d'outre-mer, t73, n°272, 3e trimestre 1986, Société Française d'histoire des outres-mers, Paris, France.
16. **Zizi Zehor**: Thomas Shaw au Proche-Orient 1721-1722, revue de la société d'études anglo-américaines des XVIIe er XVIIIe, n°27, 2010, Université de Lille III (Charles de Gaulle), France.

الملتقيات و الندوات:

باللغة الأجنبية :

1. **Morizot Pierre**: la naissance de l'archéologie romaine en Algérie, histoire et archéologie méditerranéennes sous Napoléon 3, 21 e colloque de villa Kérylos, Beaulieu, France, 8-9 Octobre 2010.

المواقع الالكترونية:

1. https://www.tshaonline.org/handbook/entries/shaler-william#t-bibliography
2. https://www.google.com/url?sa=i&url=https%3A%2F%2Fwww.tripadvisor.fr%2FShowUserReviews-g293718-d3462029-r319734844-Grotte_de_Cervantes-Algiers_Algiers_Province.html&psig=AOvVaw3CYym_asdVaBsX-iJuWTI6&ust=1622563552037000&source=images&cd=vfe&ved=0CAMQjB1qFwoTCLiIj--m9PACFQAAAAAdAAAAABAP

الفهرس

الفهرس:

عناوين المحتويات	الصفحة
إهداء	
شكر و عرفان	
مقدمة	أ – د
الفصل التمهيدي: نماذج من أعمال و مؤلفات الأجانب في الجزائر خلال العهد العثماني	
المبحث الأول: مؤلفات القناصل و الدبلوماسيين	01
المبحث الثاني: أعمال الرحالة و رجال الدين	05
المبحث الثالث: كتب الأسرى	10
الفصل الأول:الأسر و الأسرى في الجزائر خلال الفترة العثمانية	
المبحث الأول: الجزائر و عمليات الأسر في البحر الأبيض المتوسط	15
المبحث الثاني: حياة الأسرى و معاملتهم في الجزائر	20
المبحث الثالث: افتداء الأسرى	26
الفصل الثاني: سيرفانتس أسير الجزائر	
المبحث الأول: حياة سيرفانتس قبل الوقوع في الأسر	31
المبحث الثاني : مشاركته في معركة ليبانتو و وقوعه في الأسر	36
المبحث الثالث: محاولات الفرار و افتداء سيرفانتس	40
الفصل الثالث: أهم الأعمال الأدبية لسيرفانتس	
المبحث الأول: رواية دون كيشوت	45
المبحث الثاني : رواية الأسير، غالاتيا، بيرسليس و سيجيموند	51
المبحث الثالث: نماذج من مسرحياته	55
خاتمة	61

الملاحق	64
قائمة المصادر و المراجع	68
الفهرس	76

الملخص:

عرفت الجزائر خلال العهد العثماني بروز ظاهرة الأسر و الأسرى التي نتجت عن الجهاد البحري في حوض البحر المتوسط، حيث تزايد أعداد هؤلاء بها، حتى أن بعضهم قام بتأليف كتب و حتى مسرحيات صورت مختلف المجالات في الجزائر آنذاك، و من بين هؤلاء نجد الأديب الإسباني "ميغيل دي سيرفانتس" الذي قضى فترة أسر في الجزائر قدرت بخمس سنوات احتك خلالها بالمجتمع الجزائري وعايش فيها حياة الأسرى ما أثر على مساره التأليفي الأدبي، و هو الأمر الذي يظهر من خلال أعماله الأدبية التي رغم طابعها الأدبي و الخيالي واكتسائها صبغة الذاتية أحيانا إلا أنها تعتبر مصدرا لا غنى عنه لدراسة تاريخ الجزائر الحديث، و ذلك لما تحتويه من معلومات قيمة و نادرة خاصة تلك المتعلقة بالأسرى و ظروفهم و طريقة عيشهم و كذا الأحوال و الأوضاع الاجتماعية و الإدارية للجزائر خلال تلك الفترة.

Abstract:

Algeria knew during the Ottoman era the emergence of the phenomenon of captivity and prisoners that resulted from the naval jihad in the Mediterranean basin, where the number of these increased there, some of them even wrote books and plays that depicted various fields in Algeria at the time, Among them, we find the Spanish writer Miguel de Cervantes, who spent a period of captivity in Algeria estimated at five years, during which he came into contact with Algerian society and lived the life of prisoners in it, which affected his literary compositional path, this is what appears through his literary works, which despite its literary and imaginative nature and its subjectivity sometimes, is considered an indispensable source for the study of the modern history of Algeria, due to the valuable and rare information it contains, especially those related to prisoners, their conditions and way of life, as well as the social and administrative conditions of Algeria during that period.